اقرأ

توفيق الحكيم

من ذكريات الفن والقضاء



دار المعارف بمصر

مِن ذكريات الفن والقضاء

توفيق الحكيم

من ذكريات الفن والقضاء

اقرأ ١٢٦
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٦ - أول يونيه ١٩٥٣



عندما دون وكيل النائب العام . « يوميات نائب فى الأرياف » لم يقصد نائباً بالذات ولا قرية بالذات . ولكنه صور نماذج بشرية واجتماعية مما قد ينطبق على كل بقعة فى ريف مصر .

وهو فى هذا الكتاب ينحو نحواً آخر . فهو يقصد نائباً معيناً وحياة بعينها لها ميولها ونوازعها وظروفها التى قد لا تتكرر كثيراً فى عين المحيط ، وإن كان الإطار الذى تتحرك فيه هذه الذكريات هو نفس الإطار الاجتماعى الذى يعكس صورة من حياتنا فى الأقاليم .

الوزير جعفر

عندما كنت وكيلا لنيابة البندر بمدينة (. . .) من عواصم الأقاليم ، لم يكن شيء ينغص على حياتى غير رئيس النيابة . فقد كان رجلا ليس له فى الدنيا غير هوايتين : تدخين الشيشة وإيذاء الغير . كان الشر للشر هو مذهبه الفنى فى الحياة ولا يعنينى هنا تطبيق مذهبه فى مجال العمل الرسمى . فهذا أمر قد يكون له فى نظره ما يبرره . فالقسوة على المتهمين ، وتضييق الخناق عليهم فى كل وجه من أوجه دفاعهم ، والتلذذ بمرآهم وهم يقعون فى حبائل أسئلته ووسائل استجوابه المشروعة وغير المشروعة ، والذهاب أحياناً إلى حد تعذيبهم بالجوع والعطش طوال أيام التحقيق . . . كل ذلك داخل فى نطاق عمله الذى لا شأن لى به هنا . إنما أقصد بالشر معاملته لنا نحن معاونيه ومرؤوسيه وزملائه. خصوصاً من كان يظنهم بغير سند أو ظهير من عظيم أو وزير. وكنت عنده من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير عملهم ، فكان يخفف أثقال العمل عن أصهار الكبراء من الزملاء ،

ليلقيها على كاهل ضعيف مثلى . ما من ليلة تركنى أنام فيها بملء جفنى فى بيتى . فقد كان يرسل إلى خفراء الدرك يوقظوننى لأضبط واقعة حريق تافهة ، هى فى أغلب الأحيان من اختصاص معاون الإدارة . وما كان يطيق أن أسأله يوماً أسافر فيه للراحة أو الاستجمام . مرة واحدة سمح لى فيها بليلة واحدة أمضيها فى الإسكندرية . ولست أدرى كيف سمح بذلك . فقد كان شارد الفكر وقتئذ من غير شك . سألته الأجازة وهو يدخن الشيشة على قهوته المعتادة فى ميدان المديرية . فقال :

– الصبح تكون هنا .

فأكدت له أنى لا أحتاج إلى غير سواد الليل . فأنا مولع بسماع الموسيقى السمفونية . وقد علمت أن جوقة موسيقية تعزف برنامجاً حافلا لبيتهوفن فى كازينو سان استفانو . . فتحرقت شوقاً لسماعها . أنا المحروم منذ زمن طويل من متع الفن الرفيع الذى أحبه وكادت تقضى عليه حياتى الشاقة بين جرائم الأرياف وجهالة أكثر الزملاء . وسافرت وما كدت أستقر ساعة فى الإسكندرية ، حتى أفاق الرئيس من إغفائته ودخان شيشته ، وكبر عليه الأمر ، واستهول حصولى على يوم راحة ، فأطلق فى

أثرى إشارة تليفونية مستعجلة إلى المحافظة يدعونى فيها إلى العودة فى نفس الليلة — ولو بأى قطار بضاعة متهيىء للسير — بحجة قيام مظاهرات فى المدينة تستوجب مباشرة التحقيق . وعدت أدراجى دون أن أذهب لسماع الموسيقى . . فوصلت المدينة فى أول الليل . . فلم أجد بالمدينة أثراً لمظاهرات ولا لحوادث . وجعلت أستفسر فى أقسام البوليس المختلفة فما ظفرت بغير جواب واحد : كل شىء هادئ فى المدينة ، ولم تتحرك نملة . ولم يحدث ما يستوجب حضورى . فأدركت أن غريزة الإيذاء هى وحدها التى تحركت فى نفس رئيس النيابة .

* * *

مرت الأيام هكذا كئيبة ثقيلة ، إلى أن جاء صيف شديد القيظ ، وجاءت معه فى تلك المدينة فرقة تمثيلية على رأسها ممثل قديم ، كنت أعرفه وأقدره يوم كانت لى مسرحيات تمثل فى جوقة عكاشة بالقاهرة . فرحت فرحاً شديداً بمجىء هذه الفرقة . فقد كانت نسيما من أنسام الفن الجميل يرطب صحراء هذه الحياة الجافة . فقلت فى نفسى : لا بد من الذهاب الليلة لمشاهدة التمثيل ومقابلة صديقى الممثل القديم « عمر أفندى » كما كنا

ندعوه . وعدت إلى منزلى ، وكان فى طرف من أطراف المدينة ، لأتغدى وأنام قليلا استعداداً للسهر . لا فى المسرح وحده . بل فيما بعد المسرح من تحقيقات وانتقالات وحوادث مما سيخبئه لى القدر القاسى بالتآمر مع رئيس النيابة الذى لا تنام عينه عن أذية . لا سيما إذا عرف أن فى المدينة فرجة . وأنى ذاهب أمتع نفسى .

تناولت غدائى . واستلقيت على فراشى ، وكان الجو حاراً ، وكنت البارحة ساهراً فى تحقيق قضية ابتلانى بها بالطبع هادم راحتى . فلم تمض دقيقة حتى كنت أغط فى نوم عميق . ولكن نومى لم يطل فقد أفقت منه مذعوراً على صوت طرق شديد على الباب . نهضت فوجدت ما هو منتظر : أحد سعاة النيابة أرسله الرئيس ليدعونى إليه فوراً .. فسألت الساعى وأنا أتميز من الغيظ :

— يطلبنى الآن ؟ فى هذه الساعة ؟ ما السبب ؟ . . .

فقال الساعى وهو ينشف عرقه المتصبب بكمه :

— والله ما أعرف .

نظرت فى الساعة فوجدتها لم تجاوز الثالثة بعد الظهر إلا

بقليل. ماذا يصنع هذا الرجل الآن ؟ وفى مثل هذا الحر الشديد؟ إنى أعرف أنه لا ينام بعد الظهر على الإطلاق . هو ولا ريب يدخن الشيشة على القهوة . ولكن الساعى أخبرنى أنه دخن شيشته وفرغ منها على خير ، ثم ذهب إلى مكتبه فى دار النيابة وأيقظ السعاة وأحضر الكتبة من بيوتهم ، وشرع يخلق لهم الأعمال الشاقة خلقاً منتهزاً فرصة القيظ المهلك . فكرت لحظة ملياً . ثم نظرت إلى الساعى المسكين وهو يبلع ريقه الناشف ، بعد أن قطع الطريق الطويل الأجرد بين دار النيابة وبيتى ، فى هذه الشمس المحرقة . . . ثم قلت له :

ـ الدنيا حر بره ؟ . .

فأجاب على الفور :

ـ جهنم ! . .

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت له :

ـ اقعد واسترح . . عندك هنا قلة ماء باردة ! . .

فما تمالك الساعى أن صاح فرحاً :

ـ الله يعمر بيتك ! . .

وتركته ودخلت إلى حجرتى ، واستلقيت على فراشى كما

كنت ، وأغمضت عينى ، كأنما لم يحدث شىء ولم يأت أحد ، واستغرقت فى نومى العميق . . ومضى وقت قد يجاوز نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة أخرى . فاستيقظت فوجدت ساعياً آخر من سعاة النيابة قد أرسله الرئيس وقد استبطأ الساعى الأول . فابتدرت الساعى الثانى قائلا :

ـ الدنيا حر فى السكة ؟ .

فقال وهو يلهث :

ـ موت أحمر ! .

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت :

ـ اقعد واسترح مع زميلك .. واشرب من القلة الباردة ! ..

وتركته يشكرنى من أعماق قلبه . . وعدت إلى حجرتى وفراشى ونومى . . . ومر وقت لا أدرى مداه . . قد يكون أيضاً حوالى نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة ثالثة . وإذا بساع ثالث يوفده رئيس النيابة ليستعلم عن الخبر . . فخرجت إليه وبادرته بالسؤال المعهود :

كيف حال الطقس فى الطريق ؟ .

فقال وهو يستند إلى الحائط من الإعياء ، وقد كان أكبر

من سابقيه سناً وأضعف صحة :

ـــ هلاك والعياذ بالله ! . .

فأشرت إلى الدهليز وقلت :

ـــ اقعدوا كلكم استريحوا . . . الدهليز رطب ، والقلة باردة ! . . .

فجعل الساعى العجوز يستمطر الدعوات المباركات . فتركته ودخلت حجرتى واستلقيت على فراشى . ولكنى لم أنم هذه المرة . . بل جعلت أحصى عدد سعاة النيابة الموجودين الآن تحت تصرف رئيس النيابة . . وأقول فى نفسى : إنهم ثلاثة لا أكثر ، وقد أرسلهم كلهم . . وأنه لا شك سيفطن عما قليل إلى أن من يرسله لا يعود .. فما النتيجة ؟ .. النتيجة أحد أمرين : إما أنه يرسل إلى نقطة بوليس بأكملها دفعة واحدة . . ولن أستطيع بالطبع إجلاسها فى الدهليز إلى جانب القلة. وإما أن يأتى هو بنفسه ليكشف الخبر . . . والأمران ولا ريب محرجان غاية الحرج . والأصلح أن أجد لنفسى مخرجاً بترك البيت فى الحال حتى لا أواجه موقفاً دقيقاً يعرضنى لضرر أفدح . فنهضت لساعتى وارتديت ملابسى . ومررت بالسعاة فى الدهليز وقلت لهم :

ـ البيت بيتكم . . أبقوا فى مكانكم هنا هادئين ناعمين . . ولا تعودوا لرئيس النيابة الآن فيعنفكم ويعاقبكم . . انتظروا حتى يتحسن الجو وانعموا بالساعة التى أنتم فيها . . وإذا جاءكم أحد أو سألكم سائل فقولوا إنكم هنا فى انتظارى .. وإنكم لم تجدونى فى منزلى . . وليكن ما يكون . . وعلى رأى المثل الريفى : لقد « لغمطنا راس الحمارة طين » ! . .

* * *

خرجت من منزلى وأنا أقول فى نفسى : ما دمت قد رفعت راية العصيان ضد رئيس النيابة فلأفعل ما بدا لى مدة عشر ساعات على الأقل . فهو الآن لا يعرف لى مقراً . فأنا مختف عنه . هارب من بيتى . ولم أترك عنواناً . وهو أمر لا يجب أن يحدث لعضو من أعضاء النيابة العمومية . فحركة عضو النيابة كحركة عضو الجسم لا بد أن يعرف الرأس خط سيرها فى كل حين . ماذا أفعل بوقتى الآن ؟ . سأتنسم الحرية أولا ... آه ما أجمل الحرية ! . ولو لبضع ساعات ! . حرية التنقل دون أن تترك لأحد عنوانك . حرية الحركة دون أن يكون فى أثرك ساع أو خفير . الآن أستطيع أن أعيش فناناً . . كما كنت فيما مضى

بضع ساعات . . . سأذهب إلى التمثيل فى المساء . ولن يكون هناك رئيس النيابة بالتأكيد . فأنا أعرفه تمام المعرفة . إنه يحتقر التمثيل كل الاحتقار . وأذكر – يوم رآنى أحقق فى قضية كان أحد شهودها من الممثلين – أنه قال لى : « قبل أن تسمع شهادة هذا الممثل حرر له محضر تشرد » ، نعم إنه لم يذهب إلى التمثيل فى حياته . ولن يذهب الليلة بل سيكتفى بالجلوس فى قهوته يدخن شيشته ، ويفكر فيما ينزله بى من كوارث بعد هذه الفعلة. وماذا يهم ؟ . حسبى أنى سأعيش فى جو الفن ساعات ، تنعش نفسى مدى أعوام . .

مشيت فى الطرقات على غير هدى فى انتظار المساء . وكانت المدينة تعج بأهل الريف القادمين من القرى المجاورة والبعيدة . فنحن فى أسبوع مولد من أهم موالد المدينة . ولم أر من الحكمة أن أجلس فى قهوة . فقد يعثر بى رسل رئيس النيابة الذين قد يطلقهم بحثاً عنى فى جميع قهاوى البلد . وخطر لى بادئ الأمر أن أذهب إلى مسرح البلدية حيث تمثل الفرقة هذا المساء ، فأسأل عن الممثل عمر أفندى . ولكنى أعرف عادات الممثلين . فهو الآن ولا شك نائم فى فندقه ، استعداداً لسهر

الليل . فمن الخير ألا أزعجه . وليكن لقاؤنا بعد انتهاء التمثيل . لم يبق أمامى إذن إلا التسكع فى شوارع المدينة وساحة المولد ، بدون وجهة ولا مقصد . وهو ما لا يمكن أن يقع لوكيل نيابة فى مدن الأقاليم إلا فى غفلة من الزمن ومن رئيس نيابته . . . سرت فى الطرق أنظر إلى الناس والأشياء نظرات بريئة صديقة ، لا تخفى اشتباهاً ولا ارتياباً . نظرات مواطن بين مواطنين . لا نظرات محقق بين متهمين . ولأول مرة منذ اشتغالى بعملى القضائى أشعر بإنسانيتى . أشعر بأنى جزء من جماعة . لا فرد متسلط على جماعة . . .

ووقع نظرى على الإعلانات الكبيرة تكسو الحيطان ، عن فرقة التمثيل وعن رواية « هرون الرشيد » التى تعرض الليلة . فرجعت بى الذاكرة أعواماً طويلة إلى الوراء . يوم كنت أسير فى شوارع القاهرة أتأمل إعلانات جوقة عكاشة فى مسرحيتى المسماة « العريس » . كان اسمى بالخط الصغير جداً فى أسفل الإعلان يملؤنى زهواً ، ويخيل إلىّ أن كل من فى الشارع قد أعطى من قوة البصر ومن شدة الاهتمام ما جعله يقرأ هذا الاسم الصغير . لعلى أسخر من تلك الفكرة اليوم . ولكن ماذا يهم ؟ . . لقد

كنت فى ذلك الوقت أومن بكل سذاجة الشباب الأول أنى فنان. وهذا الإيمان ليس بالشيء القليل . إنه على الأقل كان يمنحنا شعوراً عجيباً لذيذاً ، قلما تستطيع الحياة أن تعيده إلينا على هذا النحو ، فى أية مرحلة أخرى من مراحل العمر .

وطفقت أستعرض فى رأسى صوراً مما جرى أيام إخراج مسرحيتى . لقد كان عمر أفندى هو المتولى أمر إخراجها . ولن أنسى حدبه على هذه المسرحية وعنايته بكل شئونها . . . كان من أبطالها الممثل القديم المرحوم « محمد بهجت » . وكان عليه أن يرتدى بذلة فاخرة تليق بدور الثرى الذى يمثله . فلما اقترب موعد التمثيل جاء لابساً خير ثيابه ، فإذا هى فى نظر المخرج لا تصلح لدور ثرى . . . فصاح فيه عمر أفندى : « بذلتك هذه تلبسها لتقول بها أمام المساجد لله يا أسيادى ! » فأجاب بطل الرواية : « هذه ملابسنا بصفتنا عظماء الممثلين ، فإذا أردتم أن نكون عظماء من الأغنياء فألبسونا من عندكم ! » وكان الجواب مقنعاً . وسعى عمر أفندى لدى مدير الفرقة زكى عكاشة فأذن بشراء بذلة جديدة « جاهزة » من محل فى العتبة الخضراء ، على حساب الفرقة ، ليرتديها بطل الرواية . وظهر

« محمد بهجت » فى تلك الليلة على المسرح فى بذلة أنيقة فخمة تليق بثرى من خيرة الأثرياء . وانتهى التمثيل . وجاء اليوم التالى فإذا محمد بهجت يختال بالبذلة الجديدة فى شوارع القاهرة ، فضبطه مدير الفرقة صائحاً فيه : « ما هذا ؟ . اخلع حالا هذه البذلة . . . هذه بدلة الشغل تلبسها فقط ليلة الرواية فوق خشبة المسرح ، ثم تسلمها بعد ذلك لتوضع فى المخزن مع « الأكسسوار » . . شأنها شأن ملابس عطيل وسيف قلب الأسد وتاج ملك النمسا . . . »

* * *

جاء الليل وحان موعد السهرة . فذهبت إلى مسرح البلدية ، فوجدت العساكر محيطة ببابه ، فأدركت أن مدير المديرية سيشرف الحفلة . فانسللت إلى شباك التذاكر وحجزت لى مقعداً فى القاعة وسط الصفوف . ودخلت وجلست . وجعلت أتصفح وجوه النظارة . كان أغلب الجلوس فى المقاعد الخلفية من القرويين الذين نزلوا المدينة لمناسبة المولد . فقد كثرت الزعابيط واللبد . أما الصفوف الأمامية والوسطى فكانت تعج بالموظفين والأعيان .ولم يلبث المدير أن دخل مقصورته فى صحبة وكيل

المديرية وحكمدار البوليس : فدبت حركة وسمعت همهمة بين النظارة واتجهت الأبصار إلى مكان الحكام . ثم علا صوت الدقات الثلاث فوق خشبة المسرح ، وارتفع الستار عن رواية هرون الرشيد . وظهر عمر أفندى فى دور الوزير جعفر . فعرفت فيه الممثل العظيم الذى أنضجته السنون . وما كادت الحفلة تنتهى حتى خرجت باحثاً عن باب الممثلين ، وقابلت صديقى الممثل القديم . فكانت مفاجأة له وأى مفاجأة . وانتظرته حتى خلع ثياب الوزير ، وأزال المكياج ، وخرجنا معاً نجوب المدينة ونتذكر الماضى . . .

* * *

مشينا فى ساحة المولد بعد منتصف الليل . وقد اشترينا كعكاً وبيضاً وجعلنا نأكل ونحن نسير بغير هدف ، ونضحك من أعماق القلب . ولم نلتفت إلى شىء من متاجر المولد ولا ملاهيه . بل كان كل همنا الحديث فى الفن . . . قلت لعمر أفندى : احك لى عن ماضيك البعيد الذى لا أعرفه . . . قص على كيف تعلقت بفن التمثيل ؟ . . . اغمرنى فى جو الفن ! . حدثنى عن التمثيل فى أول عهدك به ؟ . . كيف كان حاله ؟..

فلفظ ضحكة مكتومة ساخرة نعرفها منه وقال : لو فتحت هذا الموضوع فلن ننتهى منه قبل الفجر .

فقلت له : فليكن ! . . وهل لدينا أهم من هذا ؟ . .

فقال لى : أليس لديك شغل غداً ؟ . . إنك لم تخبرنى ما عملك اليوم ؟ . .

والواقع أنى لم أكن قد أخبرته بعد بوظيفتى . فقلت له : سأخبرك فيما بعد عما أعمل . أما الساعة فنحن للفن . . . أخبرنى كيف أحببت الفن ! . .

فتنهد عمر أفندى طويلا ثم قال : اسمع يا سيدى ! . . أقول لك حالا . . . وقضم عنق كعكته الثانية ، وقال :

كان ذلك فى عام ١٣٠٠ هجرية . وقد علق بذهنى التاريخ الهجرى . لأن نشأتى الأولى كانت نشأة دينية . فقد كان والدى رحمه الله من أئمة المساجد . فألحقنى بمكتب خان جعفر لأتعلم القراءة والكتابة وأحفظ القرآن الشريف ؛ فيكون لى من بعده عمله بالمسجد . وقد ألبسونى منذ صغرى العمامة والجبة والقفطان وصيرونى شيخاً صغيراً اسمه « الشيخ عمر » ولكن شاء الحظ السيئ أو الحسن ، لست أدرى ، أن أسمع

وقتئذ من بعض أصدقائى عن شىء اسمه « التشخيص » ، وزينوا لى مشاهدته . فذهبت معهم إلى بولاق ، ورأينا رواية يقال لها « الملك بختنصر » يمثل فيها المرحوم محمود حبيب فبهرنا التمثيل والغناء والملابس المزركشة بالقصب . أشياء لم نشاهد لها مثيلا فى حياتنا . ولم أدفع فى كل ذلك غير قرش واحد ، أجر الدخول فى « الترسو » . ورجعنا إلى منازلنا فى حى سيدنا الحسين ونحن نقلد الممثلين طول الطريق . ووالينا حضور التمثيل كل ليلة لمدة شهرين والرواية لا تتغير . وأصبح التمثيل شغلنا الشاغل وألهانى عن دروسى ، فكنت أتلقى الضرب والتعنيف من أهلى ، ولكن ما يكاد يأتى المساء حتى أنسى كل آلام الضرب وأهرع إلى مشاهدة التمثيل . . . وسمعنا بعدئذ عن جوقة القرداحى التى كانت تمثل على مسرح الأوبرا الخديوية ، وكان من بين أعضائها الشيخ سلامه حجازى . . . لكن وأأسفاه ! . . كان أجر الدخول أربعة قروش فى « الترسو » . فلم أستطع مشاهدتها غير ليلة واحدة . كانت الرواية التى يعرضونها فى تلك الليلة هى « عايدة » . لقد كنت أشاهدها وأنا كالمذهول . . ما كل هذه المناظر والملابس والتماثيل والعسكر والأحباش . . . عدت

إلى البيت ولم أنم فى ليلتى . لقد قضى الأمر وتمكن منى الداء وصحت فى فراشى من أعماق نفسى : لا بد أن أكون ممثلا ! . .

فقلت لعمر أفندى وأنا أقضم كعكتى : وقد صرت بالفعل ممثلا قديراً . . .

فقال : انتظر . . انتظر . . . بعد أى جهاد . . .

فقلت له : نعم أخبرنى كيف بدأت ؟ . .

قال : فى تلك الأيام ظهرت جمعيات تمثل فى الأوبرا الخديوية . فرجوت من صديقى الذى قادنى إلى التشخيص أن يحتال لنا حتى نشاهد عن قرب جمعية من هذه الجمعيات . فمضى ثم عاد بعد يومين يبشرنى بالحصول على إذن بحضور « بروفة » إحدى المسرحيات . ولم يكد الليل يقبل حتى كنا فى صالة البروفة نرقب مشدوهين نسيم أفندى غبريال المنبراوى المخرج الفنى العظيم المتخصص فى ترتيب المواكب والزفف وانتقاء الملابس والألوان . . . كان فى تلك الليلة يدرب ممثلين على رواية « جنفياف » التى سيمثلونها بعد أسبوع بدار الأوبرا فى حفلة خيرية تحت رعاية الخديوى توفيق باشا بإشراف سعادة باسيلى بك مفتش الأسماك المصرية . . ولقد رأيت المخرج يعلم

شاباً دور خادم فى الرواية ، مكرراً له الجملة مرات والشاب لا يفقه ، حتى ضجر منه المخرج ويئس ، وأنا أغلى من الغيظ ، حتى انفجرت أخيراً صائحاً كالمجنون : « أنا أمثل هذا الدور يا أفندى ! » فدهش الحاضرون لجرأتى وحماستى . ورحب المخرج بالفكرة . وأمر الشاب أن يعطينى الدور لأحفظه . فقلت له : « إنى حفظت الدور من مجرد الإصغاء » . فعجب الجميع لذلك وطلبوا إلىّ أن أتقدم وأؤديه . فأديته فى الحال كما كان يعلمه المخرج منذ لحظة ، وإذا بى أسمع تصفيق الاستحسان يدوى فى المكان ، وصياح الحاضرين « برافو ! برافو ! » . . إلا الشاب المسكين فقد أخذ يبكى ويقول محتجاً : « إزاى أتعب فى حفظ الدور وتعطوه لواحد جاى النهارده ؟ »

وجاءت ليلة التمثيل فى الأوبرا ، فدخلتها وأنا كالمحموم أهذى من الفرح ، وعجبت لاتساع المسرح وكثرة الحجرات والمرايا والسلالم والأبواب ، ولكنى ما شعرت قط بخوف ولا هزة ولا رعشة ، ومثلت دورى ، فسمعت التصفيق ولم أر أحداً . حتى فطنت إلى أن الصالة غارقة فى الظلام ، وأن المسرح وحده هو المضاء . فلا يستطيع من فوقه من الممثلين أن يميز وجود الجمهور

فى القاعة . كان نجاحى تلك الليلة لا شك فيه ، على الرغم من صغر الدور . وفتح لى هذا النجاح الباب . لا أقول إلى المجد دفعة واحدة ، بل إلى قبولى فى جمعيات التمثيل بغير عناء : فما كاد يمضى أسبوع حتى تلقفتنى جمعية تمثيلية تدعى « جمعية الاتحاد الوطنى » كانت تتأهب لإخراج رواية « هند بنت الملك النعمان » تأليف الشيخ محمد بصره أحد مشايخ الأزهر الشريف . ووزعت الأدوار ، وأسند دور « هند » بنت الملك إلى الشيخ محمد حامد الطالب بالأزهر الشريف والكاتب فى محل تجارى بالغورية ، ليقوم به تمثيلا وغناء بصوته الرخيم . أما أنا فكان نصيبى دور الممثلة الثانية . واستمرت البروفة أربعة شهور كاملة ، تمكنا خلالها من إتقان أدوارنا . وكان كل فرد منا يحفظ ، لا دوره فقط ، بل كل أدوار الرواية . . كان كل شىء معداً أحسن إعداد . . وإذا الجمعية تفاجأ بحضور زائر أجنبى هو الموسيقار الكبير أدرينكو تورتى يعرض عليها الاشتراك معه فى تنفيذ فكرة خطرت له . هى إخراج رواية عربية يضع هو موسيقاها ويغنيها أعضاء الجمعية . فقد بلغه أن من بينهم مغنين ذوى أصوات ملائكية . ثم يترجم الرواية إلى

الإيطالية . واشترط أن يظهر فى الرواية المحمل الشريف وأن نظهر فيها بعض العادات المصرية . . . كانت صفقة رابحة للجمعية . إذ أبدى الرجل استعداده لبذل المال بسخاء ، وإخراج الرواية على مسرح الأوبرا فى فصل الشتاء ليشاهدها السياح . وجاءت مسألة البحث عن المؤلف . فقلنا من يكون غير الشيخ محمد بصره مؤلفنا العظيم ، فقدمناه إلى الموسيقار الإيطالى فاتفق معه على الموضوع . ولم يمض بالفعل شهر حتى تم تأليف رواية « المحمل الشريف » . وهنا قامت فى وجوهنا عقبة ، لقد أصر الموسيقى الإيطالى على أن تكون ألحان الرواية موافقة لموسيقاه الإيطالية التى وضعها . وكان هذا مستحيلا لما بين التلحين العربى والغربى من فروق . خصوصاً فى تأدية الآذان والإنشاد والأذكار والشعر العربى الرصين الذى نظمه المؤلف الأزهرى ! . . ولكن الرجل كان شديد العناد ، محتماً أن تكون الألحان كما وضعها هو بلا تغيير ولا تبديل . ولم ننجح فى إقناعه وخفنا أن تفلت من أيدينا الصفقة . فأذعنا وسلمنا أمرنا لله ، وشرعنا نجرى التدريبات . وسعى الرجل من جهته حتى حصل على التصريح بالتمثيل على مسرح الأوبرا ، وبدأ ينفق المبالغ

الطائلة فى إعداد الملابس والمناظر . وكان لا بد من ظهور ميدان المنشية والقلعة على المسرح ، فأعد كل هذا بالخشب لا بالقماش أو الورق ، واتفق مع ديوان الحربية على استعارة مائة من الجنود السوارى بخيولهم لتظهر على المسرح ، واستأجر عدداً عظيما من الجمال والحمير وعربات الحنطور والكمبيل والكارو وتختروانات ومزمار وكل ما كان يرى فى مهرجان المحمل ، حتى باعة الذرة والترمس والقرداتية . ستقول لى كيف يمكن إظهار كل هذه الجموع على المسرح ؟ . . . المسألة بسيطة : خلف الأوبرا باب كبير مرتفع قليلا عن الشارع يؤدى إلى المسرح ، فإذا وضع أمام هذا الباب عارضة من الخشب المتين ذات منحدرين على شكل سلم مزدوج ، أمكن لهذه الجموع أن تجتاز المسرح وتخرج منه ، وتكرر هذه العملية عشرات المرات وأخيراً تم كل شىء . ولم يبق إلا أمر واحد تذكرناه : هو مواكب مشايخ الطرق بالأعلام والبازات والأثواب المختلفة . فأشرنا على المسيو أدرينكو أن يذهب إلى السيد البكرى ويستأذنه فى ذلك وبهذا تكمل كل مظاهر المحمل . فلم يبطىء وأسرع إليه وعاد بأذنه وهو يتهلل بشراً . ولم يبق بعد ذلك غير تحديد

الموعد وطبع التذاكر ، وانتظار أكياس الذهب تتدفق فى جيوب الإيطالى . وإذا بخطاب خاص يصله من السراى ، فتوجه وهو يطير من الفرح لمقابلة الخديوى توفيق، ممنيا النفس بالرعاية التى سيسبغها سموه على حفلاته . ولم تطل غيبته . فقد عاد إلينا بعد قليل . فرأينا ويا لهول ما رأينا . . . رأينا هذا الموسيقى الإيطالى الممتلىء فرحاً يعود إلينا شاحب الوجه مقصوم الظهر ، فقد صدر إليه الأمر العالى بعدم تمثيل الرواية لما فيها من تعريض بالدين . وضاعت آمال الرجل مع أمواله ، وتبددت أحلامنا وتشتتت جمعيتنا . . .

ولكن حب الفن المتمكن فينا لا سبيل إلى القضاء عليه . لقد عدت بعدئذ إلى فرقة محمود حبيب التى كانت أول ما شاهدت من التمثيل ، فالتحقت بها وطفت معها فى رحلاتها بالأقاليم . وما كنا نستطيع السفر بالسكة الحديدية ، لكثرة النفقات ، فكنا نسافر فى المراكب . نشحن فيها شحناً مع صناديق الملابس وأخشاب المناظر والستائر ، وكنا ننام على ظهر المراكب ، وكلما رسونا على بلد طلعنا نمثل فيها ثم نعود إلى مركبنا . . وكان للنيل فى ذلك الوقت قرصان كقرصان البحر ،

يغيرون على المراكب الراسية فيسلبون ما فيها . فى ذات ليلة ومركبنا راس على شاطئ مدينة فى الصعيد ، هجم علينا القرصان ، فتركنا المراكبية مذعورين وقفزوا إلى الشاطئ . ولم ندر نحن الممثلين ماذا نصنع أمام هؤلاء اللصوص المسلحين . فطرأت فكرة على المرحوم محمود حبيب أنقذتنا . فقد أمرنا فى الحال بارتداء ملابس الجنود التى يرتديها الكومبارس فى إحدى الروايات ، ووزع علينا بنادق المسرح الخشبية ، ووقفنا جميعاً صفوفاً على ظهر المركب ، وقد اشعلنا « الكلوب » فما كاد اللصوص يروننا حتى ظنوا أن الحكومة أرسلت العساكر للقبض عليهم ففروا هاربين . . مثل هذه الرحلات كانت تنهك قوانا من التعب ، ولكنها كانت تعود علينا بالربح الوفير . أو على الأصح على صاحب الفرقة . أما الفن فلم أشعر بمعناه الحقيقى إلا عند ما التحقت بفرقة المرحوم الحداد . كان للحداد آراء فى الفن هى وحدها التى وجهت حياتى الفنية . لقد علمنا أشياء لم تكن تخطر لنا على بال . كان يوصينا دائماً باتباع الطبيعة . كان يقول لنا : « كونوا كما أنتم فى الحياة » . حتى الصوت ما كان يسمح لنا برفعه عن الحد الذى تجيزه الطبيعة . وكان

يجلسنا فى المقاصير البعيدة أثناء إلقائه ، فإذا طلبنا إليه أن يرفع صوته لنسمعه ، قال : « على الممثل أن يتجنب الخروج عن الطبيعة وعلى الجمهور أن يحسن الإصغاء » . ولكن الفن الجيد لا يجد دائماً غير العقبات التى تحول بينه وبين الإقبال . فقد كان مسرح الحداد فى حى ممتلئ بدور الرقص والغناء والطبل والزمر . فكنا نبدأ التمثيل وسط الضجيج والصياح والنداء على أبواب تلك الملاهى : « هنا الست نزهة المغنية » . . « هنا الست شفيقة القبطية » . . وجمهورنا يصيح بنا أن نرفع أصواتنا ليسمع والمرحوم الحداد مصر على التزام الطبيعة . حتى مل الجمهور ، وزهد فى الروايات الفنية التى كنا نعرضها ، فلم يمض قليل حتى قل الإقبال وهبط الإيراد . . .

ـ وألف القرداحى وقتئذ فرقة جديدة ، فانضممت إليها ، وعرض على دور « السجان » فى رواية تسمى « الظلوم » . فأجدت التمثيل ليلة عرض الرواية إلى حد جعل الزملاء جميعاً يشاهدوننى من بين الكواليس . وجاءنى القرداحى يقول بلهجته الشامية :

ـ منيح ! منيح ! لكن ما بتعلى صوتك . الترسو إلو حق

يسمع شو بتقول .

فأفهمته أن التمثيل المتقن الجيد هو التمثيل الطبيعى . وأعدت عليه ما لقننى إياه الحداد قائلا :

– يا أستاذ .. الواجب أن الصوت يكون حسب الطبيعة ...

فهرش القرداحى رأسه ونظر إلى ساخراً وقال :

– ها الطبيعة بتقول بلاش الترسو ؟ ! .

ولم أجد نفعاً من الاسترسال فى رأيى فسكت . وجاءت الليلة التالية ، واستعدوا لتمثيل رواية « عطيل » . فأقبل على القرداحى يقول :

– الليلة بتشوف شو بيصير التمثيل بعطيل . . وبتعمل زيى . . وبتشوف الفرق بينى وبين أستاذك الحداد .

وكان المساء ، وشاهدت الفرق حقاً بين تمثيل القرداحى وتمثيل أستاذى الحداد . . .

ظهر القرداحى فدوى المكان بالتصفيق . ثم سمعته فسمعت قصف المدافع يهز أركان المسرح ، وتردد صداه الجدران . وهو يصول ويجول ولا يترك موضعاً على الخشبة إلا انتقل إليه ، مشوحاً فى الهواء بذراعيه . . هذا كان فنه . أما معاملته فقد

كان من أبغض الأشياء إلى نفسه دفع أجور الممثلين . كان من زملائى فى فرقته ممثل يطلقون عليه اسم « الشيخ كوارع » وهو رجل غريب الأطوار ، غضب على القرداحى يوماً لمماطلته فى دفع مرتبه ، فترك المسرح طول النهار وخرج إلى الأسواق حاملا قدرة عرق سوس ، وربط حول وسطه حزاماً من الصفيح تدلت منه الأكواب ، وصار يبيع للمارة كوب الشراب ومعه لحن ينشده من ألحان الروايات بربع قرش . أما من يدفع له فى الكوب نصف قرش فكان يغنيه توشيحاً . . وصادفه القرداحى فى السوق بهذه الحالة فصاح به :

ــ شو بتعمل يخرب بيتك ! .

فأجابه على الفور :

ــ هات فلوس والشغل يبقى فقط جوه التياترو ! .

* * *

مضى عمر أفندى يحدثنى عن بدايته الفنية وأنا مستغرق فى الإصغاء ، لا أقاطعه ولا أراجعه ، وقد نسيت نفسى وما حولى . ما من شىء كان يخرجنى من هذا الجو إلا شبح خفير أو عسكرى بوليس يدنو منا . فقد كنت أجذب يد صاحبى بقوة

لأبتعد به عن الشبح المخيف الذى جاء يطلبنى : فيما كنت أظن
وكانت دوريات البوليس كثيرة فى تلك الليلة من أجل المولد ؛
فكثرت علامات انزعاجى . وكان كلما قطع صديقى الممثل
حديثه ليعرف ما بى ، طرحت عليه سؤالا يشغله . قلت له أخيراً

– لن أنسى فضلك فى إخراج روايتى « العريس » .

فقال :

– الفضل فى نجاحها للمرحوم محمد بهجت . كان حقاً ممثلا عظيما ! .

وأطرق عمر أفندى لحظة . ثم رفع رأسه وأخذ يتذكر كيف شاهد بداية محمد بهجت . حدث ذلك أيضاً فى جوقة القرداحى . فقد جاء ذات يوم أحد أفرادها يقدم ممثلا جديداً لم يعتل بعد خشبة المسرح. فأسند إليه دور خادم فى رواية «أنيس الجليس» دور صغير جداً ، كل ما يطلب من ممثله أن يدخل المسرح ليقول جملة واحدة : « على الباب يا مولاى قاصد » . . هذا كان دور محمد بهجت الأول . ولكنه ما كاد يتلقاه حتى ذهب إلى شاطئ البحر ، ليقف أمامه الساعات ، مستلهما جمال الطبيعة : متأملا الأمواج فى هديرها والرياح فى صفيرها ، ناصباً قامته

الطويلة ، نافخاً صدره الضخم ليلقى جملته الرهيبة : « بالباب يا مولاى قاصد » . . . هكذا كان يقضى الأيام حتى جاءت ليلة التمثيل . فاستعد أتم استعداد . وجعل يطيل النظر فى المرآة وهو يلقى جملته الهائلة بصوت مجلجل خطير . وأفراد الجوقة من حوله ينظرون إليه ضاحكين فى أكمامهم ضحكات سخرية يخالطها إشفاق . ودنت اللحظة الكبرى . ودخل الممثل الناشىء المسرح ليلقى كلمته المأثورة « بالباب يا مولاى قاصد » . . وهو معتقد ولا شك أن الجمهور إذ يسمعها سينفق الليل فى التصفيق ويستغنى عن بقية الرواية . . .

وصمت عمر أفندى قليلا . ثم أردف قائلا : هذا بالطبع شعور كل مبتدىء . وقد مررنا جميعاً بهذه المرحلة . . .

ولمحت عينى حينئذ عسكرى بوليس يتدلى من يده شىء أبيض ، وهو مقبل علينا . فما شككت فى أنه يقصدنى وأن ما بيده ورقة بيضاء ، لعلها إشارة تليفونية أو خطاب من رئيس النيابة . ففزعت وجذبت صاحبى من ذراعه جذبة كادت تخلع مفاصله ، فصاح بى :

— مالك ؟ . مالك ؟ ! .

ـ ابعد بنا عن البوليس ! . .

قلتها وأنا أجتاز به الطريق بعيداً عن العسكرى . وكان رجل البوليس قد اقترب من أحد مصابيح الغاز ، فنظرت إلى الشىء الأبيض فى يده فإذا هى رؤوس فجل بيضاء تتدلى من حزمة يحملها ولا ريب إلى عياله . فعاد الاطمئنان إلى نفسى . ولكن الشكوك والريب كانت قد خامرت صديقى الممثل . فوقف ونظر إلى وجهى الذى يغمره ظلام الليل ، كأنما يريد أن يستشف سرى . قال :

ـ إنت خايف من البوليس ؟ . . قل لى السبب !

فقلت له :

ـ بكره أقول لك . خلينا الساعة للفن !

فلم يزده هذا الجواب المتهرب إلا ارتياباً وقلقاً . فتسمر فى الأرض ولعن الفن وسيرته . وأبى أن يتحرك قبل أن يعرف سر خوفى من البوليس . فإن لم أصارحه بالحقيقة فهو فى حل من تركى والخلاص بجلده قبل فوات الأوان . فهو قد يكون فناناً بوهيمياً . ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام من طريدى الحكومة ولا من المجرمين أو المتسترين على الإجرام .

فقلت له ضاحكاً :

ـ الإجرام ! ؟ .

فقال فى خوف :

ـ طبعاً لا تؤاخذنى ! . . حد يهرب من البوليس إلا من يكون قتل قتيل أو سرق سريقة ! ؟ .

فقلت له بغير غضب :

ـ قصدك إيه يا عمر أفندى ؟ .

فقال فى الحال :

ـ قصدى أنك تقول لى الحق . بينى وبينك ، شغلتك ؟ . .

فقلت وأنا أخفى ضحكى :

ـ شغلتى ؟ . أقول لك الحق . . بينى وبينك شغلتى لها علاقة بالإجرام والمجرمين . . .

فصاح الرجل مذعوراً :

ـ يا حفيظ يا رب ! . .

فما تمالكت نفسى من الضحك . فابتعد عنى خطوتين فى حذر وهو يقول مودعاً :

ـ سلام عليكم ! . .

ثم أطلق ساقيه للريح . فأسرعت خلفه أصيح به :

ـ انتظر . . انتظر يا عمر أفندى . . انتظر . .

فأشار إلى بيده علامة الابتعاد وقال دون أن يقف :

ـ أنت غرضك تسبب لى داهية فى آخر الليل . وأنا غريب عن البلد . . .

فصحت به راجياً :

ـ كلمة واحدة . . . اسمع لى . . . كلمة واحدة . . . أحكى لك كل شىء . .

فاستدار نحوى وهو يجد فى السير وقال :

ـ أنا لا أعرف حضرتك . . . ولا سبق لى معرفه بحضرتك . . .

وجرى فى الشارع وأنا أركض خلفه لألحق به ، حتى كاد منظرنا يستلفت الأنظار ويوقعنا فى مآزق نحن عنها فى غنى . وبالفعل . لم تمض لحظة حتى طلعت علينا داورية من أحد الشوارع الفرعية ، على رأسها جاويش . ظهرت فجأة أمام عمر أفندى المنطلق كالسهم . فما شعر المسكين إلا وهو بين يدى الجاويش ، يقبض عليه ويصيح به :

ـ بتجرى كده ليه الساعة دي ! . .

فسمعت عمر أفندى يقول فى صوت المولول :

ــ آدى اللى أنا كنت حاسب حسابه ! . .

وقفت أنا بالطبع فى مكانى أترقب ما يحدث . فرأيت الجاويش يقذف بعمر أفندى وسط الداورية قائلا لرجاله :

ــ احجزوه ؛ . .

وهنا استدار صديقى القديم ونظر خلفه يبحث عنى بعينيه ويصيح :

ــ ما أعرفوش ! . . والله ما أعرفه . . .

فقال الجاويش الفطن سائلا :

ــ مين هوه ؟ . .

وأخذ يرسل نظراته إلى الجهة التى يتطلع إليها سجينه . فأبصرنى واقفاً فى مكانى لا أدرى ما أصنع . فأشار إلى بخشونة وصرامة منادياً :

ــ تعال هنا يا جدع أنت ! . .

فلم أجد بداً من الطاعة . فتقدمت نحوه ، ولكن بخطى ثابتة . فما كاد يتبين وجهى ، حتى عرفنى ، فقد رآنى ولا ريب كثيراً فى جلسات المحاكم ، وعند مصاحبته للمتهمين أمام

الاستجواب فى قضايا التلبس . وإذا هو فجأة يدق الأرض بنعليه ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ، ويقول متلعثما :

ــ لا مؤاخذة يا سعادة البك ! . .

ولا أدرى كيف أصف ما ارتسم على وجه عمر أفندى وقتئذ من علامات العجب والدهشة والذهول . كانت المفاجأة سريعة وبغير تمهيد فلم يبد عليه أنه فهم شيئاً مما رآى . إلى أن سمعنى أقول بلهجة الأمر :

ــ أنت حاجز الأفندى ده ليه يا شاويش ؟

فقال الجاويش فى الحال :

ــ أمر سعادتك يا أفندم ! . .

فأمرت قائلا :

ــ سيبه ! . .

فأطلق سراحه . ووقف على رأس الداورية سائلا بأدب :

ــ خدمة ثانية يا أفندم ؟ .

فقلت وأنا أشير بيدى علامة الانصراف :

ــ لا . . خلاص .

فدق الجاويش الأرض بنعليه مرة أخرى ، وأدى التحية

العسكرية ، وأمر الداورية بالسير . فسارت فى طريقها وتركتنا فى مكاننا . وأنا أشيعها بنظرى حتى ابتعدت . بينما لبث عمر أفندى جامداً فى موضعه كأنه تمثال . فدنوت منه ودعوته إلى استئناف السير ، وأنا أنظر إلى وجهه وأقول :

ــ مالك ؟ . .

فأجاب وكأنه يصحو من حلم :

ــ مالى إيه ؟ . . أنا مش فاهم حاجة . . فهمنى . . حضرتك تبقى إيه فى البلد ! . .

وعندئذ أخبرته بكل شىء عن عملى ووظيفتى وهربى من رئيس النيابة ، فضحك من فكرة ارتيابه فى أمرى . واطمأن قلبه . ومضينا فى حديثنا الأول عن الفن . غير إنى لاحظت أنه بدأ يحادثنى بلهجة يخالطها شىء من التحفظ والتأدب . لهجة بعيدة عن ذلك التبسط الذى كان يرسله على السجية منذ قليل . فأدركت أنى لم أعد فى نظره الفنان القديم الذى كان يخالطه بغير كلفة قبل دقائق . . . ودقت عندئذ إحدى ساعات الحائط فى حانوت قريب دقتين ، فعلمنا أننا الآن فى تمام الثانية صباحاً . فقال لى :

ــ أظن الوقت تأخر على سعادتك . . .

ورنت كلمة « سعادتك » فى أذنى رنيناً غريباً ، ملأ قلبى أسفاً ووحشة . لو أنها كانت على الأقل مبطنة بالسخرية لارتاحت نفسى . ولكنها كانت صادرة عن شعور جدى بأن حاجزاً بيننا قد وضع. فأردت أن ألفت نظره إلى الأمر فضحكت لكلمته ثم تجاوزت التلميح إلى التصريح . موضحاً له ما قام بنفسى . لكنه فيما يظهر لم يقتنع ، ولم يرد أن يصدق أن وكيل النيابة الذى يأمر البوليس بالحجز والإفراج ، وتحييه الداورية بالتحية العسكرية يمكن أن يحتفظ فى أعماق نفسه بقلب فنان . وأردت أن أصف له مهنتى فى جوهرها الحقيقى الذى أراها عليه ، فقلت له إنها ليست مجرد قبض وحبس وتهم وأحكام . بل هى مسرح وتمثيل وجمهور . ففتح فمه عجباً :

ــ وضح لى من فضلك !

ــ أوضح لك . . .

وجعلت أصف له جلسة المحكمة التى أحضرها مع القاضى . إنها قاعة متسعة بها مقاعد للجمهور ، شأنها فى ذلك شأن قاعات التمثيل . ثم هنالك المنصة التى تجلس عليها هيئة المحكمة

ويتطلع إليها بأبصارهم جمهور الحاضرين . إنها تشبه خشبة المسرح التى تتطلع إليها عيون المشاهدين . ثم هنالك الروايات التى تعرض . . . إنها فى جلسات المحاكم لا تقل غرابة ومتعة عنها فى قاعات التمثيل . وروايات المسارح يقدمها المؤلفون . وروايات المحاكم يقدمها النائبون والوكلاء العموميون . أى أنى فى عملى القضائى أقوم على وجه التقريب بما كنت أقوم به فى عملى المسرحى . بل إنك إذا فتحت ملف قضية من القضايا وجدت فيه حواراً من عمل وكيل النيابة يسمى فى لغة القضاء محضر تحقيق ، قد لا يقل أحياناً فى الروعة عن الحوار الموجود فى ملف رواية مسرحية . كل ما هنالك من فرق هو أننا فى الجلسة نعرض رواياتنا فى النهار وبدون ماكياج . ويدخل الممثلون إلى القاعة من الحياة مباشرة . فى حين أن رواية المسرح تحتاج إلى وسطاء من الفنانين ينوبون عن الأشخاص الحقيقيين . ومع ذلك فلدينا المحامى الذى ينوب أحياناً عن الشخص الحقيقى فيتصرف بفنه البارع فى إظهار الحقائق الدفينة تصرف الممثل القدير فى إبراز خفى المشاعر . كل شىء إذن فى قاعة المحكمة قريب الشبه إلى كل شىء فى قاعة التمثيل . فى القاعتين الحياة تجرى

مجردة أو مزوقة أمام جمهور من النظارة . . .

* * *

حان وقت افتراقنا . فذهب هو إلى فندقه الذى ينزله مع أفراد فرقته . وعدت أنا إلى منزلى . وقد اتفقنا على اللقاء فى مساء اليوم التالى . دخلت بيتى فوجدت كل شىء هادئاً . فقلت هو الهدوء الذى يسبق العاصفة . ولكنى لم أفكر فى غير حاضرى وكان التعب قد نال منى ، فنمت نوماً عميقاً حتى طلع الصباح فنهضت وذهبت إلى مكتبى فى نيابة البندر ، وأخذت أصرف شئون عملى المعتاد كأن لم يحدث شىء . ولكن الصمت المضروب حولى بدأ يثير قلقى . ما بالى لا أسمع عن رئيس النيابة خبراً . إنه لا يتركنى هكذا حتى الساعة إلا وهو ينوى أن يفاجئنى بمكروه. وكدنا نقترب من الظهر ، وتصدع رأسى من كثرة تحقيق قضايا التلبس العاجلة التى قذفتها علينا حوادث المولد . فتوقفت قليلا عن مواصلة العمل . وطابت فنجاناً من القهوة ، وأخذت اتصفح جرائد اليوم . كان فى الصحف أخبار التعديل الوزارى. وطالعت اسم الوزير الذى يعنينا . وهو وزير الحقانية أى « العدل » . فلم أعرف عنه شيئاً . هو اسم جديد لعضو فى أحد

الأحزاب . يدخل الوزارة لأول مرة . فقلت فى نفسى : لعل رئيس النيابة قد شغل عنى اليوم بأخبار الوزارة . وتركت الصحف وتأهبت لاستئناف عملى . وإذا الساعى يدخل معلناً زيارة صديقى عمر أفندى . فأذنت له فى الحال . فدخل متردداً معتذراً . واخرج من جيبه ورقتين كبيرتين . . حفظهما فى يده لحظة وهو يقول :

ــ عند سعادتك حق . . . بين التمثيل والقضاء شىء من القرابة . . .

وجلس حيث دعوته إلى الجلوس . وجعل يوضح لى سبب زيارته التى على غير موعد ولا انتظار . ممهداً لذلك بموقف مماثل حدث له فى الصعيد فيما مضى من سالف الزمن ، يوم كان فى جوقة المرحوم محمود حبيب . قال إنه كان يومئذ جالساً على باب المسرح نهاراً قبل التمثيل . وإذا برجلين من الفلاحين يقبلان وفى يد أحدهما « عريضة » يريدان أن يقدماها إلى الملك هرون الرشيد أو إلى الملك النعمان . فقد سمعا من الناس فى الأسواق ، وممن يقرأ لهم الإعلانات ، أن الملوك تحضر فى ذلك المكان . وهما يتوسلان أن ترفع العريضة إلى أحد هؤلاء الملوك ليرفع عنهما الظلم . . .

وقدم إلىّ عمر أفندى الورقتين وهو يقول :

ـــ نفس الموضوع حصل الصبح . . .

واستطرد يقول إن الزمن قد تغير بعض التغيير . فالشكوى اليوم ليست مقدمة كما قدمت فى الماضى إلى هرون الرشيد أو الوزير جعفر مباشرة . فالعقلية قد تنورت قليلا . بل هى مقدمة إلى الحكومة . فقد ذكر القرويون فيما ذكروه عند ما حضروا فى الصباح إلى المسرح بالعريضتين ، أنهم حضروا التمثيل البارحة ولاحظوا وجود الحكومة كلها من مدير وحكمدار وعسكر وخفراء ، فأدركوا أن التمثيل شىء مهم عند ذوى الشأن . وأن لأفراد الفرقة من الممثلين خاطراً واعتباراً عند المدير والحكمدار . فجاءوا يطلبون الوساطة لدى الحكام .

ونشرت العريضتين بين يدى ، فوجدتهما مملوءتين بالشكاوى ضد العمدة والصراف يتهمهما بالإهمال . فتناولت قلمى وأشرت عليهما بالتحويل إلى جهة الاختصاص لأجراء التحقيق اللازم ثم التفت إلى صديقى الممثل باسماً :

ـــ النيابة نفذت طلبات الوزير جعفر ! . . .

فرفع عمر أفندى يديه إلى رأسه بالشكر على الطريقة التى

تتبع فى قصور الملوك فى روايات التمثيل . وكنت قد طلبت له قهوة . فحضرت وأخذ يرشف فى الفنجان على مهل . . . وإذا باب الحجرة المغلق يفتح فجأة مسبوقاً بضجة وصوت صدمة كأن قدماً قد ركلته . وإذا رئيس النيابة يدخل الحجرة هاجماً كأنه قذيفة مدفع . فما إن أبصرت أوداجه المنتفخة وعينيه المتطاير منهما الشر ، وطريقته العنيفة فى الدخول ، وسحنته المخيفة المنذرة بالويل والثبور ، حتى أيقنت بحلول الطامة الكبرى . . . وأسعفتنى حلاوة الروح ، فضبطت أعصابى وأسرعت أحول مجرى الموقف كمن يحول أنظار ثور هائج إلى هدف آخر ، فأقبلت على الرئيس مشيراً إلى عمر أفندى قلت :

— اسمح لى أقدم لسعادتك الوزير . . .

وهممت أن أضيف كلمة « جعفر » . ولكن رئيس النيابة لم يتركنى أتم الكلام . فقد كان أسرع من لمح البصر فى الانحناء ومد اليد باحترام إلى صديقى الممثل القديم ، قائلا :

— نهنئ وزارة الحقانية بإسنادها إليك يا معالى الوزير . . .

فعقدت الدهشة لسانى لحظة . ولكن سرعان ما انكشفت لى حقيقة الموقف . فتجلدت . واكتفيت بمراقبة ما يجرى وما

سيجرى . فرأيت عمر أفندى قد انحنى هو الآخر مسلماً . وهو لم يدرك قطعاً من الأمر شيئاً . وظن المقصود من « معالى الوزير » أنه الوزير جعفر فى رواية هرون الرشيد . فكانت انحناءته طويلة مسرحية لا يمكن أن تصدر عن وزير « الحقانية » . ولو كان رئيس النيابة حاضر الذهن وقتئذ ، ولم يكن غارقاً فى جو التعديل الوزارى الذى يملأ البلد والصحف فى تلك الأيام ، لفطن للأمر . ولكنه أخذ ولا شك طريقة الانحناء المغرقة الغريبة على أنها مغالاة فى التواضع . وخطر لى عندئذ أن أستغل الموقف للخروج من ورطتى فقلت مباهياً :

ـ الوزير صديق قديم . . .

فنظر إلىّ رئيس النيابة القاسى كالحجر نظرة تودد واستعطاف . فتشجعت وقلت له :

ـ أرجوك يا سعادة الرئيس تقول لصديقى الوزير أنت راضى عنى وإلا لأ ؟ . .

فالتفت إلى عمر أفندى وقال بلهجة التحمس وهو يشير إلى بيده المرتجفة من التأثر :

ـ أؤكد لمعالى الوزير أنه أحسن وكيل نيابة فى المديرية

فى الكفاءة والنشاط والآداب والطاعة والأخلاق والذكاء . . .
وكيل نيابة مثالى . . نموذجى يا معالى الوزير . . .

واسترحت لهذا الاعتراف الذى انتزعته من فم رئيس النيابة انتزاعا . ولكن الشك أخذ يخالجنى فى قيمته . وبدأت أتصور ما سيحدث عند ما تنكشف حقيقة التزوير . فوجدت السلامة فى الهرب قبل فوات الأوان . فأسرعت أقول لرئيس النيابة :

ـ سعادتك ملاحظ أنى مرهق فى العمل ومحتاج لراحة . . فيه مانع تسمح لى بأجازة أسبوعين ابتداء من اليوم .

فأجاب فى الحال :

ـ ما فيش مانع أبداً . تقدر تقوم بالأجازة من دلوقت . وأنا أنتدب وكيل نيابة المركز يحل محلك .

ـ متشكر . أنا مسافر بعد ساعة . . .

فوافق رئيس النيابة بعلامة مؤدبة من رأسه . واتجه إلى عمر أفندى قائلا :

ـ ومعالى الوزير شرف البلد إمتى ؟ . .

فأجاب الممثل من فوره :

ـ اشتغلنا من ليلة امبارح .

ورأيت كأن رئيس النيابة يريد أن يستوضح . فأسرعت أقول مفسراً دون توضيح يكشف المستور :

ـ كان وزير ليلة امبارح . . .

وفهم رئيس النيابة من ذلك أن المراسيم وقعت البارحة . وفهم عمر أفندى أنه كان حقاً وزيراً فى رواية البارحة . وظل الأمر بذلك مستوراً . إلى أن قال عمر أفندى بسذاجة :

ـ طبعاً سعادتك شرفت ليلة إمبارح مع سعادة المدير . . .

فلم يفهم رئيس النيابة شيئاً من المقصود . وخشيت أنا أن تسفر الاستيضاحات من الجانبين عن كشف الموقف . فدنوت من رئيس النيابة وهمست فى أذنه بأن الوزير مدعو إلى الغداء عندي دعوة خاصة مقصورة عليه بناء على طلبه ، وأن من اللياقة أن يأذن لنا الآن بالانصراف . فقال فى الحال :

ـ تفضلوا . . . تفضلوا . . . أنا تحت أمركم . . .

* * *

وهكذا خرجنا من المأزق . ولم أكد أغادر دار النيابة مع عمر افندى حتى تركته وذهبت إلى منزلى تواً فأعددت حقائبى وسافرت إلى الإسكندرية فى أجازة أسبوعين . وأنا أتوقع فى كل

لحظة ظهور الحقيقة . فلا بد أن يعرف رئيس النيابة من الصحف أن وزير الحقانية لم يذهب إلى ذلك البندر من الأقاليم بل لا بد له أن يرى صورة للوزير الحقيقى تنشر فى إحدى الجرائد ، يدرك منها مدى المهزلة . ولكن القدر شاء أن يجنبنى المصيبة فى حينها ، وأن ينقذنى هذه المرة أيضاً من رئيس النيابة كما سبق أن أنقذنى. فإذا بالصحف تنشر فى اليوم التالى لسفرى حركة تنقلات بين رؤساء النيابات ، وجدتها تشمل رئيس نيابتى بالنقل إلى مديرية أخرى بعيدة . . . فتنفست الصعداء وأيقنت أنى نجوت . . .

ومرت بعد ذلك الأعوام الطويلة ، وفرقت الأيام بينى وبين رجال القضاء ، بتركى هذا السلك إلى أعمال أخرى . . فلم أقابل رئيس النيابة القديم إلا بعد أن أحيل إلى المعاش وقد وصل إلى آخر مراحل القضاء فى محكمة النقض . قابلته فى مقهى بالقاهرة وهو شيخ متهدم ، ففرح بلقائى أيما فرح ، وقال وهو يستعيد ذكرى الماضى ويتنهد :

— فاكر معالى الوزير إياه ؟ ! .

فقلت له باسماً وأنا أغمز بعينى :

– الوزير جعفر ؟ ! .

فقال ضاحكاً عن طقم أسنانه الصناعية :

– أيوه يا سيدى . . . وزير هرون الرشيد . . . ماعرفتش أنا شخصيته إلا بعد أنت ما زغت ! . .

سقطوا فى الإخراج !

عندما انتدبت للقيام بأعمال النيابة العمومية فى مركز (. . . .) من الأقاليم . . قالوا لى :

ــ حذار من مأمور هذا المركز . . . إذا سلم عليك فبادر إلى عد أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد اختلس منها أصبعاً ، فى غفلة منك ! . .

فقلت بنبرة الواثق :

ــ اطمئنوا ! . . .

وركبت القطار إلى مقر وظيفتى . . وإذا المأمور ينتظرنى على المحطة مع جميع موظفى المركز ووجهائه وأعيانه . . ويستقبلنى استقبال الحكام أصحاب الأبهة والمقام . .

ومنذ تلك اللحظة والمأمور يحيطنى بكل عناية وإكرام . . فما من يوم يمضى ، حتى يقيم لى مأدبة يحشد لى فيها الأعيان والعمد ، ويذبح لى فيها الديوك ، ويسميها حفلة تعارف ، واجتماعاً مصلحياً ، للتوفيق بين الأسر المتنافرة ، والنصح بمراعاة

الهدوء التام ، والمحافظة على الأمن العام ! . .

وأخيراً انفردت بالمأمور ، وهمست فى أذنه :

ــ قل لى يا حضرة المأمور ! . ما هى الحكاية بالضبط ؟ .

ــ أى حكاية ؟ . .

ــ حكاية الولائم هذه . . والديوك . .

ــ هذا أقل ما يجب علينا . . ابتهاجاً بقدوم سعادتك ! . .

ــ مفهوم ! . . ولكن المسألة طالت و . . زادت ! . .

ــ أبداً . . أنت كلك خير وبركة . . ولا تحلو لنا لقمة من غير وجودك ! . .

ــ هذه اللقمة ديك رومى . . هل مرتبك أو مرتبى يسمحان لنا بهذا الترف ؟ .

ــ نحن فى الأرياف يا بيك . . الخير هنا كثير . . الخير كثير ! . .

ــ مفهوم . . مفهوم . . هذه الديوك تشترى أو . . تهدى إليك ؟ . .

ولمح حضرة المأمور فى كلامى ما يشبه الاستجواب . . وأحس بغريزته أو لباقته أو مرانه وخبرته أنى لست الرجل الذى

فهم وسكت واستمرأ . . فبادرنى قائلا :

ـ سمعت عنى شيئاً ؟ . .

ـ لم أسمع غير الثناء العاطر !

قلتها بكل رباطة جأش . . فتنفس المأمور الصعداء . .

وقال :

ـ عيبى أنى رجل « بجبوح » ! ما فى يدى لغيرى ! . .

فقلت له باسماً بلهجة ذات مغزى :

ـ وما فى يد غيرك ؟ . .

فرفع كفه بحركة تمثيلية وصاح :

ـ حاشا لله . . !

فقلت له :

ـ ولكن مسألة الديوك . .

فاقترب منى بكرسيه ، وقال فى أذنى :

ـ ماذا سمعت عنها ؟ . . بالله قل لى . . . من الذى أخبرك ؟ . الولد سعداوى الخفير ؟ . .

ـ لا أعرف سعداوى ، ولم أسمع من خفير . . ولكنى شممت بأنفى لها رائحة ! . .

فنهض المأمور صائحاً :

ـ شممت له رائحة ؟ ! . . مؤكد هو الكلب سعداوى الذى أخبرك ولا أحد غيره ! . . ولكن ما ذنبي . . إذا كان فى كل يوم يموت ديك رومى ! . .

ولم أفهم مراده وحملقت فيه بعينى :

ـ ماذا تقول ؟ . .

ولم أكد أتم كلمتى ، حتى ظهر الخفير ، وضرب الأرض بحذائه الضخم ، ورفع يمناه إلى لبدته الطويلة ذات الرقم النحاسى وحيا حضرة المأمور . . ومد يسراه ، فإذا بها ديك رومى نافق بالموت ، ورائحته نتنه تؤذى الأنوف . . . وأسرع الخفير يقول بلهجة مسرحية كأنها ملقنة محفوظة :

ـ وجدناه « فطسان » بين الديوك يا أفندم ! والبلوك أمين عمل المحضر اللازم . . . ولم ينتظر الخفير من المأمور كلاماً . . وضرب الأرض بحذائه وانصرف بالديك الميت المنتن على عجل . . ولكن المأمور نهض وعاجله بصفعة على قفاه قائلا له بصوت خافت :

ـ مظاهرة ! . . روح واخفيه فى مخزن التبن يا لوح ! . .

وعاد المأمور . . فوجدنى أضع يدى على بطنى ، كمن يحس التىء . . وأقول له :

ـــ كنت تطعمنا من هذا . . .

فقال بصوت صادق هذه المرة :

ـــ حاشا لله ! . . .

ثم أقبل على يقول كمن يفضى باعتراف ، قضت ضرورة الموقف أن يكشف عنه ، إحتى لا يقع فى وهمى ما هو شر من الحقيقة كما قال ! . . حقيقة الأمر أنه كلف رسمياً بجمع الديوك الرومية لحساب جيش الاحتلال البريطانى ، لمناسبة عيد الكريسماس . . فجمع بنشاطه وهمته من القرى التابعة له مئات من هذه الديوك . . مات منها هذا الديك المنتن منذ أيام عديدة . . . وعمل له المحضر اللازم . . ولكنه لم يلق ولم يدفن . . بل احتفظ به فى المخزن . . . يخرجه الخفير سعداوى كل صباح ، ليعمل له محضر إثبات« وفاة » على اعتبار أنه ديك جديد قد مات . . . بينما الديك الجديد حى يرزق ويذبح فى منزل حضرة المأمور ! . .

سمعت ذلك . . . فقلت :

– إذن هذا الديك المنتّن . . . فقاطعنى المأمور قائلا بابتسام :

– ممثل ليس إلا . . . كل وظيفته الآن أن يقوم بتمثيل دور الميت فى كل صباح . . .

فقلت فى شىء من الجد :

– وهل هذا يجوز ؟ . . . إنه ينتحل شخصية ديك حى ! . . .

فقال المأمور :

– وهل من الجائز أن جمعاً من الديوك يعد بالمئات لا « يفطس » منه ديك واحد على الأقل كل يوم ! . . هل الديوك خير من الآدميين ؟ . فلنراجع نسبة الوفيات إلى تعداد القطر المصرى . . . إنى راض بالإحصاءات الرسمية ! . .

فقلت له :

– ولكن الواقع أنه لم يمت عندك فى كل يوم ديك . . . أليس هذا هو الواقع ؟ . .

فقال :

– ولكن المعقول أنه يجب أن يموت من هذا العدد فى كل

يوم ديك . . أليس هذا هو المعقول ؟ ! .

فقلت :

ـ لا يهم الآن المعقول . . . ولكن . .

فقال صائحاً :

ـ سبحان الله ! . . عندما تتصرف جهة الإدارة مرة واحدة فى حياتها طبقاً للمعقول . . . يصبح المعقول لا يهم ! . .

فضحكت . . . وقلت له :

ـ هذه على كل حال مسألة لا تدخل حتى الآن فى اختصاص عملى القضائى . . . كل ما يجب أن أعمل هو أن أعفى نفسى من حضور هذه الولائم . . .

وانقطعت منذ تلك اللحظة عن رؤية المأمور . . . إلا لأمور تتعلق بالعمل . . وحاول هو أن يقنعنى بأنه ، فيما عدا مسألة الديوك المنطقية فى نظره ، رجل سليم الطوية ، طاهر الذمة ، مستقيم السلوك . . ولم أجد حتى ذلك الوقت ما يلقى على تصرفاته غباراً . . فقد كان مثال النشاط والهمة والذكاء .

* * *

وكاد يكتسب كل ثقتى . . . إلى أن وقعت حادثة فى

ليلة من الليالى . . . فقد جاءتنى إشارة تليفونية بأن ابن أحد الأعيان قتل بعيار نارى . . والقاتل مجهول . . فسألت عن المأمور . . فقيل لى إنه خف إلى مكان الحادثة . . فقلت فى نفسى : « مأمور نشيط » . . وقمت فى أثره إلى مكان الواقعة . . فوجدته قد قام بالواجب . . وأكثر من الواجب . . فقد قبض على القاتل . . وضبط البندقية المستعملة فى الجريمة . . وأحضر شهود الإثبات . . ولم يبق أمامى إلا أن أسجل فى محضرى قضية ناجحة ، لا شبهة فيها ولا شك . . هذا الفتى القتيل ابن العين الثرى ، كان فى « الجرن » مع شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل تليفون العمدة ، وهم شهود الإثبات ، يتدفأون حول « ركية نار » وإذا المتهم يطلق العيار على المجنى عليه ، ويرديه قتيلا . . . وقد رأى الشهود القاتل رؤية العين . . . وهم شهود رسميون لا خلاف فى أقوالهم ولا تناقض ، كان كل منهم يدلى بشهادته أمامى بكل فصاحة وطلاقة . . لا تلعثم ولا تردد . . فلما سألتهم :

— وكيف أبصرتم القاتل والليلة مظلمة فى هذا الوقت من آخر الشهر العربى ؟ . .

أجابوا كلهم . . لم يشذ منهم واحد !

ــ أبصرناه على « ركية » النار ! . قلت فى نفسى : غداً فى مثل وقت الحادثة من الليل أجرى عمل تجربة . . . ولكن ما من شىء يدعونى إلى تكذيب شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل التليفون . . . قضية ناجحة . . فيها شهود رؤية . . وأقوال مقبولة معقولة . . وأمرت بحبس المتهم . . وعدت إلى دارى ، وأنا أثنى على همة المأمور . . .

وفى اليوم التالى جاء محام معروف (أصبح فيما بعد وزيراً خطيراً) وأخبرنى أنه حاضر عن المتهم . . وأنه يشك فى تصرفات المأمور . . فإن الصلة بينه وبين العين الثرى والد القتيل ، معروفة عند العالمين ببواطن الأمور ، أنها قائمة على المنفعة ، وأن هذا العين أراد اتهام غريم له . . كان يريد من قبل الإيقاع به . . هو هذا المتهم . . وأن شهود الإثبات لم يبصروا شيئاً ولم يروا أحداً ، وأن الإشارة التليفونية الأولى قيل فيها إن « القاتل مجهول » . . شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل التليفون ليسوا سوى شهود مصطنعين يمثلون دوراً أعد لهم إعداداً . . .

فقلت للمحامى :

ــ اطمئن . . سأقوم الليلة بعمل تجربة . . سأضع الشهود

حول « ركية النار » . . ونأتى بأنفار مختلفين على أبعاد مختلفة لنحكم هل يبصرونهم ويعرفون صفاتهم ! . .

فانصرف المحامى منتظراً النتيجة . . وجاء الليل . . فسألت عن المأمور ، فقالوا لى إنه سبقنى « بالبوكسفورد » إلى مكان الحادث . . ليعد اللازم للتجربة . . . فقمت أنا وكاتب التحقيق فى سيارة النيابة . . ولم نكد نقترب من القرية التى وقع الحادث فى زمامها ، حتى شاهدنا ألسنة اللهب وسحب الدخان تتصاعد منها إلى عنان السماء ! . . فقلت مرتاعاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . لقد شب حريق فى القرية !.

وأمرنا السائق أن يسرع بنا إليها لنعرف الخبر . . فانطلق بنا إلى أن وصلنا إلى الجرن . . . وهناك رأينا العجب . . . أحطاب مكدسة بعضها فوق بعض . . . طولها وارتفاعها مما يقاس بالمتر . . . قد أشعلت فيها النيران . . . والشهود من حولها يمدون أيديهم نحوها كأنهم يتدفؤن . . وشواظ اللهب قد أسال العرق من جباههم ، ودخان الحطب قد سود وجوههم . . . ووهج الضوء يكشف الجرن فى الظلام الليل على نحو يحسده عليه ميدان الأوبرا فى القاهرة ! . .

قلت للمأمور الواقف بين شهوده يمسح عرقه بمنديله :

ــ ما هذا ؟ . .

فقال وهو يسعل من الدخان سعالا شديداً . .

ــ ركية النار ! . .

فصحت :

ــ أتسمى كل هذا « ركية نار » للتدفئة ؟ . . أهذا معقول يا حضرة المأمور ؟ . . أنت صاحب التصرفات المعقولة . . هل يرضيك أن تسمى هذا الحريق « ركية » ؟ ! .

ونحيته فى الحال جانباً . . . وأمرتهم بإطفاء هذه النيران . . وجئت بفلاح آنست فيه البراءة ، وتوسمت فيه الذمة . . فطلبت إليه أن يقيم « ركية » نار للتدفئة كما يفعلون عادة فى هذه الناحية . . فأقامها بالحجم المعقول . . فعارض الشهود . . فزدت فى حجمها قليلا . . . فعارضوا أيضاً . . . فزدت . . . حتى جعلتها أضخم مما ينبغى قليلا . . واستحضرت أنفاراً من أهل القرية على مسافات مختلفة . . فما استطاع شاهد واحد أن يميز شخصاً منهم ، أو يتبين صفة من صفاته الظاهرة . . فهم فى ضوء الركية لا يمكن أن يبصروا من فى الظلام . . بل هو

الذى يستطيع أن يراهم ولا يرونه. ذلك هو الوضع الطبيعى كما اتضح لنا، مادام الجرن لم يسطع بضوء الحريق الذى أرادوا أن يشعلوه...

عند ذاك أيقنت أن شهود الإثبات لم يروا شيئاً حقاً ولم يبصروا أحداً . . وأنهم ليسوا أكثر من ممثلين يؤدون أدواراً . . فعدت إلى مقر عملى وأطلقت سراح المتهم.. وقلت للمأمور هامساً :

ـ جعلت من الديك الرومى ممثلا . . قلنا معقول ! . . ولكن ألا تعترف أن تمثيل شيخ البلد وأعوانه لم يكن بالمعقول ! . .

فأبدى التنصل . . وأظهر البراءة . . وألقى عليهم التبعة ، ونفى عن نفسه التدخل . . وقال ضاحكاً :

ـ مسألة « الركية » فضحتهم ! . . نجحوا فى التمثيل ، وسقطوا فى الإخراج ! . .

كان الأجدر به أن يقول « سقطنا » . . . ولكنه أراد أن يخرج من كل هذا كما تخرج الشعرة من العجين . . ولم أر فائدة من إحراجه ، فتظاهرت بتصديقه . . غير أنى أصبحت شديد الارتياب فى كل تصرفاته . إلى أن انتهت مدة انتدابى فى مركزه . . وركبت قطار العودة . فإذا به يودعنى كما استقبلنى . بحشد الأعيان والموظفين على المحطة . . وسلم علىّ

سلاماً حاراً . . ولم يترك يدى حتى تحرك القطار . . فما كدت أخلو إلى نفسى فى عربة القطار ، حتى تذكرت قول من حذرنى منه قبل أن أراه .

ــ إذا سلم عليك فبادر إلى عد أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد خطف منها إصبعاً دون أن تدرى ! . .

ففتحت كفى فى الحال . . لأرى هل أنا عائد من هذا المركز بأصابعى العشر ؟ ! .

شاعرة الهجاء

كنت فى كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشحاً بوسامى الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ذلك الدفتر الطويل الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين والشهود ، وملخص وصف التهمة ومواد القانون إلخ . . . وبين أصابعى ذلك القلم الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل قضية . ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة فى ذلك « الرول » فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره » هو الذى يسد هذه الخانة بقلمه تلطفاً منه وكرماً لثقته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وانتباه . على أن من المبالغة أن نزعم أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى حولى طوال الوقت . هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه إليها كل التفاتى . . لعلى كنت أعرف بالغريزة ما ينفعنى كروائى مما لا نفع لى فيه . إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين . . فالقضية التى فيها مرافعة طويلة معناها عندى « غياب ذهن »

طويل . . وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين فى نظر المحكمة يثير فى نفسى كل تأمل وتفكير . ولقد سمعت فى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بألفاظ جارحة :

القاضى ــ ماذا حصل يا خفير ؟

الخفير ــ أنا واقف فى دركى جهة نقطة الملموسات (يقصد المومسات) ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمة خارجة من بيتها حاطه . . .

القاضى ــ حاطه إيه ؟

الخفير ــ حاطه من غير مؤاخذة أحمر وأبيض ومتخططة وفى رجليها الخلاخيل ولابسة شبشب زحافى ، وواقفة بين الجدعان فى وسط الشارع فى حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال . . .

القاضى ــ وكيف تعدت عليك المتهمة أثناء تأدية وظيفتك ؟

الخفير ــ قلت لها عيب يا ملموسة . ادخلى بيتك . فما كان منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت وتقصعت وقالت : « اخرس يا غفير يا مصدى قطع لسانك .

دا أنا لما أنفض شبشبي الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك » ! . .

فظهر الاستنكار على وجه القاضى . وظهر الإعجاب على وجهى. إن هذه المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدى ، وهى فى نظرى قد جاءت بأخصب صور الخيال الفنى . فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة فى تحقير خفير . لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً أخرى فى التجميل والثناء كما فعلت فى التقبيح والهجاء لكانت شاعرة ، ونظرت إليها وهى فى قفص الاتهام فإذا هى هادئة ساكنة ويدها على خدها ، ترمقنا بنظرات فاترة . . وعلى شفتيها ابتسامة لعلها ساخرة . . إنها معترفة . ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟ لقد روحت عن نفسها بما قالت وكفى . . ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟ . .

ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟ لا أقصد حياتها الظاهرة التى يعرفها الخفير ورجال الضبط وزوارها وزبائنها ، إنما أقصد تلك الحياة الخفية فى قرارة نفسها ، هنالك ولا شك أشياء كثيرة رأتها وأحستها ولا تكلف نفسها التعبير عنها ، ولو أنها أرادت أو استطاعت لجاءت بأعاجيب ، ذلك أنها ستصف الأشياء

بطريقتها هي ولغتها هي . . ويا لها من طريقة ولغة ! . . لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟ ليس أكذب من الروائى الذى يفكر لأشخاصه بعقله هو ويتكلم عنهم بلغته هو ، هذه المرأة مادة قيمة لى ولكن . . أنسيت أنى أمثل الاتهام ؟ نحن فى الحياة قطبان لا يلتقيان . وإن التقينا فحول القفص . لأنى أنا العقاب وهى الجريمة ، أنا السيف وهى الذبيحة . . لا يمكن أن نلتقى للتفاهم أبداً . . لا تفاهم إلا إذا طرحت عنى وسامى الذى يكبلنى وانطلقت حراً أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف المثال من الطين الذى يصنع به فناً . .

ومضت بى الخواطر فى هذا السبيل . . وغمرتنى فلم أدر حتى بالزمن الذى مر بى . . ولم أفطن إلى ما جرى حولى ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا . . ولم أنتبه إلا على صوت باب حجرة المداولة يفتح فجأة وقد ظهر الحاجب فى حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسياً وضعه إلى جوارى وهمس فى أذنى بقوة :

ــ سعادة البيك مفتش عموم النيابات ! . .

وقبل أن أفيق إلى نفسى دخل المفتش بسرعة وجلس إلى جوارى وحيانى بصوت خافت . ثم أراد أن يعرف رأيى فى القضية

المعروضة ، فاصفر وجهى . أى قضية ؟ والتفت أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة بعيون زائغة شاردة : فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغى ويزبد ويضرب بقبضته فى الهواء ويصيح :

ــ هذا كلام فارغ . النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة . لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضى هذا المتهم مكبلا بكل هذه النصوص . .

فمال مفتش النيابات يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم ، فلم أدر ماذا أقول ولا ماذا أصنع . . وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة ويتناقشون . . وشاء سوء حظى أن يكون هذا المحامى سفيه اللسان فأمعن فى الصياح قائلا :

ــ هل هذه نصوص تطبق فى حالة موكلى ؟ هذا تخبط من النيابة هذه فوضى . . هذا سمك لبن تمر هندى . .

فاهتز مفتش النيابات فى كرسيه وانتفخت أوداجه . . وهمس فى أذنى بشدة . . .

ــ النيابة أهينت. . . قم دافع عن كرامة النيابة !

فقلت مداراة للمسألة :

— كرامة النيابة فى الحفظ والصون . .

— كيف ذلك ؟ ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى ؟ المحامى يقول النيابة سمك لبن تمر هندى . .

فقلت له : أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندى فقط .

فصاح صيحة كاد يسمعها القاضى والحضور :

— لا . . لا . . لا . . هذه إهانة موجهة إلى النيابة . . . يجب على الجالس فى كرسيها أن ينهض لدفعها . . قم . . قم . . وسجل احتجاجك . . وابسط وجهة نظرك فى تطبيق نصوص القانون . .

فقلت فى نفسى : لو أنى كنت أعرف فقط نوع القضية؟ ولكن الموقف ساء من كل ناحية . فكان الدفاع بعيداً كل البعد عن ذكر ما يشم منه رائحة التهمة ، مكتفياً بالتهويش والتهويل والطعن فى تصرفات النيابة والبوليس ، وكلما أمعن فى ذلك هاج مفتش النيابات وماج وانهال على كمى يكاد يمزقه وهو يطلب منى القيام والكلام . . وأنا متشبث بمقعدى مصمم على القعود والسكوت . وأصبح منظرنا لمن يفهم موقفنا يبكى ويضحك وقد فطن القاضى إلى الأمر كله وأدرك الورطة التى

أنا فيها ، وهو يعرف عاداتى جيداً ويحترم شرود ذهنى دائماً . .
فابتسم ابتسامة فهمتها . فتشجعت وقمت أقول بقوة وحماسة :

ـ النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى .

فقال القاضى : ـ المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته . وهو لم يقصد قط فى لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد .

وصادق المحامى على قول المحكمة بعبارة مجاملة . وجلست فى مقعدى أتنفس الصعداء وأقول لمفتش النيابات :

ـ هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة ! . .

ومرت الأيام وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية فى البلاد ، فكنا كلما تقابلنا وتذكرنا الماضى ضحك لموقفى ذاك طويلا . . ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنى كنت مع كل عيوبى من خيرة رجال النيابة . . عافاه الله ! . .

مصيفون فى السلاسل

لقد قلتها يوماً : ما من عمل فى العالم كله أشق من عمل نائب فى الأرياف فى فصل الصيف ، فالجرائم تزداد فى الصيف ، لأن الغرائز تتيقظ بكل حرارتها فى الصيف . والناموس والهابوش والبق والذباب والقمل والبراغيث كلها تكثر فى الصيف ، وتزحف على حيطان النيابة العمومية . . . فإذا ذكرت كلمة البحر لمنكود مثلى يعمل فى أقاصى الريف فى هذه الظروف فكأنك قد ذكرت النسيم لمذنب يتلظى فى أعماق الجحيم ! . . . وكنا ننتظر الانتدابات الصيفية كما ينتظر البشر مفاجآت القدر . . فإذا جاء انتدابنا فى مدينة أو بلدة على بعد ساعتين من بحر أو نهر سجدنا لله بالشكر . . .

لن أنسى فرحتى يوم فتحت المظروف الأصفر الرسمى ، فوجدت أنى قد انتدبت طول شهر يوليو فى « فارسكور » لم أتمالك أن صحت : « لقد صيفت ! »

ولبثت أعمل فى هذا الريف ليل نهار أنجز المتراكم من القضايا ، وأقوم بعمل اثنين لأن الوكيل المساعد قام بالأجازة . . . ونفسى لا تتسع للفرح الذى يملؤها ويفيض من جوانبها . . . حتى جاء شهر يوليو وأذنت ساعة السفر إلى فارسكور . . فحملت حقيبتى وركبت القطار إليها منشرح الصدر شامخ الأنف كأنى سائح ذاهب إلى ربوع سويسرا . . .

كل ذلك لأن فارسكور قرب دمياط . . ودمياط قرب رأس البر ! . ووقف القطار بعد سفر طويل كاد ينفد معه صبرى فى وسط الخلاء ، وصاح عامل القطار ينبهنى : فارسكور ! .

فنظرت من النافذة فلم أجد مدينة . . ولكنى وجدت « كشك » من الخشب يسمى « محطة » ومن حوله فضاء وبرارى . . . ولا شىء غير ذلك .

ـ متأكد أن دى فارسكور ! .

ـ طبعاً . . وما مصلحتى أنى أغش حضرتك ! .

قالها « الكمسارى » . . فنزلت بحقيبتى ، وأنا لا أدرى ماذا أنا صانع فى هذه البقاع . . لا بيت ولا فندق ولا حتى

بلدة . . . ولم أفكر طويلا فقد أنقذنى صوت خلفى يصيح :

ــ تفضل يا سعادة النائب !

فالتفت ، وإذا هو حاجب النيابة فى انتظارى ، أقبل نحوى وتناول من يدى الحقيبة . . فابتدرته قائلا :

ــ الحقنى ! . . أنا فين ؟ . . احنا فين ؟ . .

ــ فى فارسكور يا بيه . .

ــ فين هى فارسكور ؟ . . الكشك ده ! .

ــ لا مؤاخذة يا بيه ! . . هنا المحطة . . لكن البلد هناك على مدى الشوف ، فى البر الثانى . . لازم نمشى أو نركب ركوبة . . وبعد كده نعبر النيل فى قارب . . وبعدين نمشى مسافة . .

ــ وليه كده المحطة مخاصمة البلد ؟

ــ مصلحة السكة الحديد ؟ .

ــ ما علينا . . . وصلنى بأى طريقة .

ووصلنا إلى استراحة النيابة فى بلدة فارسكور . . ونظرت إلى الحجرة التى سأقيم فيها ، وإلى الفراش الذى سأنام عليه . . وصحت . . . مستحيل ! .

وخاطبت وأنا فى ثورة من الغضب النائب العام بالتليفون ، قلت له :

– إنى أراهن على أن المكان المخصص لمبيتى الذى يسمونه « استراحة » ، للتعمية أو للسخرية ، لو أنه عرض على كلب ضال فى حارات فارسكور لعافه وفضل الهواء الطلق ! . . فهل يحرم على مثلى حتى الهرب إلى الهواء الطلق ! .

فقال النائب العام فى نبرة ضاحكة :

– وكيل نيابة البلد ينام فى الهواء الطلق كالمتشردين ! . .

– وما العمل ؟ .

– تصرف على مسئوليتك الخاصة . . لك أن تبيت فى دمياط أو رأس البر . . أنت حر على شرط أن تقوم بواجبات أعمالك بكل دقة . . وعلى مسئوليتك أنت وحدك ! . .

– متشكر يا باشا ! . .

قلتها فرحاً . . فهذا تصريح مستتر بأن أقيم فى المكان المريح . . إذن لماذا لا أذهب فوراً إلى رأس البر . . وأحضر إلى فارسكور كل صباح . . ولننقل كل يومين مرة . . حسب العمل . . ونظام الجلسة .

وقمت فى الحال بحقيبتى إلى فندق « كورتيل » برأس البر : وحجزت حجرة . . وبلغت المركز والنيابة وكل جهات الإدارة فى المصيف بمكانى ورقم حجرتى للاتصال بى عند اللزوم . . وفتحت رئتى لهواء البحر . واضطجعت قليلا وإذا تعب الشهور والأعوام يتجمع فى لحظة واحدة . . . وإذا أنا طريح نوم لم أصح منه إلا فى ضحى اليوم التالى .

وجعلت أذهب يوماً إلى فارسكور ، وأبقى يوماً فى رأس البر . ثم انكمشت حصة فارسكور إلى ثلاثة أيام فى الأسبوع . . ثم انتهى بى الأمر أن صرت لا أذهب إلى فارسكور إلا يوم الجلسة فقط ، أى مرة واحدة . كل أسبوع . . وقد فرح بذلك موظفو النيابة والمحكمة . . فقد كثر ترددهم على رأس البر بحجة عرض وارد القضايا على «حضرتى » . . ولم تبق عقبة فى سبيل متعتى بالصيف وإقامتى الكاملة فى المصيف إلا قضايا التلبس والمحابيس . . أى القضايا التى لا بد لى فيها من استجواب المقبوض عليهم من المتهمين ، وانتهى بى الأمر أيضاً أن صرت أستدعى هؤلاء إلى رأس البر لاستجوابهم . . فيأتون من السجن فرحين مع حراسهم يستنشقون هواء البحر . . وسرت الإشاعة

بين المسجونين والعسكر ورجال الضبط وكثر حديثهم عن سعادة « وكيل النيابة » الذى يحضر « المحابيس» إلى المصيف فتنافسوا وتزاحموا . . وكثرت طلبات الاستجواب . . وأصبحت أفتح عينى فى الصباح على صف طويل من مجرمين فى الحبال يجرهم طابور من العساكر ، فما أكاد أخرج من « العشة » أى الحجرة « بالفوطة » والمايوه وبرنس الحمام حتى أتلقى « تعظيم سلام » من الجنود والمتهمين وهم فى نشاط من هواء البحر وبشر متهلل يطفح من وجوههم . . فأقول للعسكر :

ــ إيه كل دول ؟ . حافظوا عليهم ألا يهربوا منكم ! . .

فيصيح بى صوت من بين المتهمين المقيدين فى حبال الليف :

ــ نهرب ليه . . ؟ ربنا يخليك يا سعادة البيه ؛ . حد يهرب من الجنة ! .

فأقول لهم وكأنى أخاطب نفسى :

ــ صدقتم ، اتمتعوا بالهوا المنعش تمتعوا ! .

وإذا بى أسمع صوت أحدهم يقول :

ــ جعنا يا سعادة البيه جعنا . . الهوا جوعنا . .

ــ ما شاء الله ! . . أنتم جايين تغيروا هوا ؟ . .

ولكنى أعترف أن منظرهم أثر فى نفسى ، ومنظر سعادتهم ملأنى عطفاً عليهم . . ونسيت أنهم مجرمون ومتهمون . ولم أر فيهم إلا تعساء مثلى حرموا طويلا نسيم الراحة ، وفرحوا أخيراً كالأطفال بهواء البحر . .

ودفعت إلى الحراس بعشرة قروش وقلت :

ـ خذوا اشتروا عيش وحلاوة طحينية لحضرات المجرمين المصيفين ! .

وكانت نتيجة هذه العاطفة الإنسانية من جانب سعادة النائب زيادة مروعة فى إحصائيات الجنح والجرائم فى تلك الفترة من انتدابى ، فقد نزل أهالى المركز بعضهم فى بعضهم ضرباً ولطماً وقذفاً رغبة فى الحبس وطمعاً فى التصييف على نفقة الحكومة ، ولأول مرة أرى قرارات إفراجى عن المتهمين تقابل بالاحتجاج الشديد والطعن فى نزاهة النيابة العمومية . . فلا أكاد أقول للحراس :

ـ افرجوا عن هذا المتهم ! .

حتى يصيح المتهم وهو يملأ رئتيه من هواء رأس البر :

ـ ده ظلم يا بيه ! . أنا لسه مقبوض علىّ النهارده ! .

ليلة سوداء !

كانت ليلة . . لست أدرى كيف نجوت منها ؟ . إنى أقولها دائماً وأنا أكاد أجن : إن وظيفة وكيل نيابة فى ريف مصر هى أحياناً أشق عمل فى العالم كله . . ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندى الخنادق فى الحروب الكبرى ! . .

سمعت آذان العصر فى المسجد المجاور لدار النيابة التى كنت أديرها . . ولكنى لم أرفع رأسى الغارق فى الأوراق . . كنت وحدى القائم بالعمل . . فقد كنا فى شهر يونيو ، فطوحت الانتدابات الصيفية بمساعدى إلى بلد بعيد . . . كان على إذن أن أحضر الجلسات وأقوم بالتحقيقات وأحرر المذكرات وأنهض لضبط الوقائع الجنائية . . كل ذلك كنا نفعله عن طيب خاطر ، لأن غمرة الحياة وزحمة العمل ما تركت لنا وقتاً نفطن فيه إلى عرقنا المتصبب ! . . .

ولم يكد يسكت صوت المؤذن حتى ارتفع صوت نعل عسكرى يدق أرض الحجرة دقاً . فأدركت دون أن أنظر

أنه خفير من المركز :

ـ خيراً ؟ ! .

ـ إشارة يا أفندم ! . مشاجرة دبت بين بلدين ؛ . .

ـ حضرة المأمور قام ؟ .

ـ منتظر سعادتك فى الكومبيل ! .

فعلمت أن كل شيء معد . . وأن المأمور فى السيارة . . وما على إلا النزول فوراً مع كاتب التحقيق وقد كان . . وركبنا وانطلقنا نقطع أكثر من ثلاثين كيلو متراً فى طرق زراعية وعرة ترفع سيارتنا وتخفضها ، وترجنا داخلها وتهزنا . . كأننا فيران فى مصيدة ترجها يد صائد منتقم . . حتى أصابنا الدوار ونال منا الكلال . . فما بلغنا البلدة موضع الحادثة ، ووقفت السيارة حتى خرجنا منها نتأرجح كالسكارى . . ودخلنا بيت العمدة ، وطلبت لنا القهوة . . وأمرت بفتح المحضر ، وأنا لا أكاد أعرف لى رأساً من قدم . . وانتهينا من شرب القهوة ومن فتح المحضر ، وأثبتنا فيه بالطبع حضور المأمور ، وعندئذ نهض حضرته ودنا منى وهمس فى أذنى :

ـ يظهر أن الحادثة بسيطة جداً . . العمدة المغفل هول

فى الإشارة . . لا هناك ضرب ولا قتل . . مشاجرة تافهة بين أنفار بالهم رايق . . وأنا قائم بالأجازة الصبح بدرى مع العائلة ... فإذا سمحت لى بالانصراف فإنى أكون شاكراً . . والبركة فى همتكم وحضرة ملاحظ النقطة موجود تحت أمركم ! . .

فأجبته إلى طلبه ، مراعاة لظروفه ، دون تفكير أو تدبير . . فما كاد يختفى . . حتى ظهرت الحادثة على حقيقتها فنحن أمام معركة واسعة النطاق . . . وإذا جثث القتلى من الطرفين تخرج من غيطان الذرة محمولة على الأكتاف . . وإذا الرؤوس المفلوقة بالنبابيت تساق إلى من كل جانب . . . وإذا الأهالى يتجمهرون حول مكان التحقيق . . . يصيحون كلما ظهر مصاب . . يتبينون من أى بلدة هو . . فتولول النساء من أهله ، ويزمجر الرجال من عشيرته مهددين . . إلى أن بلغ الأمر حداً غلت فيه النفوس وثارت الأحقاد .. فإذا الأصوات تعلو من الطرفين هادرة كالأمواج ، تقسم طالبة الثأر بيدها لا بيد القانون . . ولم يبق إلا شرارة لتندلع نار مذبحة أشد من الأولى خطراً وأوخم أثراً . . يحتدم أوارها تحت أنظارنا المتفرجة ، فتذهب بذلك هيبة الحكومة . .

هنا التفت إلى ملاحظ النقطة . . فوجدته أصفر الوجه . . لا يوحى منظره بالاطمئنان . . وكيف لا يمتقع لونه ، وهو لا يملك الساعة فى حوزته غير ثلاثة من العسكر ، اثنين منهم بجوار الخيول . . . والثالث واقف بيننا لينادى على الشهود . . الأمر إذن لابد أن يعالج بشيء من الحكمة . . فصحت بالناس طالباً منهم الهدوء ، وانتظار نتيجة التحقيق بشيء من الصبر . . فإن الحكومة تعرف كيف تثأر لصاحب الدم . فهدأ الناس قليلا . . . وباشرنا التحقيق . . ولكن كيف تستطيع أن ترضى طرفين متضادين ؟ . . . وما كنت أضيق الخناق على متهم من إحدى البلدتين . . . حتى يهتف أهل البلدة الأخرى شامتين فى صوت كالرعد :

ـ فليحيي العدل . . .

حسب هذه الكلمة أن تلفظ حتى تعدها بلدة المتهم تجريحاً لهم وتحرشاً بهم . . . فينهضوا يلوحون بعصيهم ؛ فأهدئ الحالة من جديد . . بأن أستجوب متهماً من البلدة الأخرى . . فيعلو صياح الشماتة من البلدة الأولى :

ـ فليحيي العدل ! . .

ويتكهرب الجو مرة ثانية : وتعود العصى والهراوات والفؤوس ترفع فى الهواء . . فأكف عن هذا المتهم لحظة . . وأعود إلى متهم فى البلدة المنافسة . . وهكذا دواليك . . حتى خلت نفسى مروض وحوش فى « سرك » . . . لا يدرى كيف يسكت الزئير من حوله ، ولا يعلم أيخرج من ذلك القفص حياً ؛ أم يسقط ممزق الثوب والجسد تحت أقدام الضوارى المتشابكة ؟!

ولقد أمرت الملاحظ أن يلزم الصمت . . وأن يكون رابط الجأش . . لأننا لن نلجأ مطلقاً إلى استعمال القوة . . وبهذا العدد الضئيل من رجال البوليس . .

وكيف تصنع نقطة فى بحر ! . . المهم أن نخرج بكرامتنا . . ولكن كيف نخرج ؟ . . كانت المشكلة التى تحير فكرى هى : مسألة القبض على المتهمين ! . . . وقد فطن الملاحظ إلى ذلك الأمر . . فنهض يهمس فى أذنى . .

ـــ إذا قررتم القبض على أحد الليلة . . فإن . . .

ـــ فإن هذه البلدة ستكون مقبرتنا ! . .

قلتها بالطبع فى نفسى . . ولكنى أدركت مراد الضابط . . . أن البوليس الموجود معنا ، وهو لم يكف لحفظ النظام ،

أنستطيع أن نقبض به على متهدين فى هذا الزحام ! ؟ .
اقترح الملاحظ أن نتصل بحكمدار بوليس المديرية ليرسل إلينا فرقة من الهجانة . . ولكن المسألة إذا وصلت إلى المديرية فإن موقف المأمور سينكشف . . ولم أرد أن يطعن فى ظهره . . حتى بعد أن ظهر لنا من إهماله ما ظهر . . ثم أنى حتى ذلك اليوم ما تعودت طلب النجدة ، ولا الشكوى من شئون العمل . . بل كنت أتجشم التعب ، وأتحمل التبعة خلف جدران الصمت والسكون . . .

رفضت اقتراح الضابط قائلا :

ـ ألا يستطيع القانون أن يسيطر على الموقف بمجرد هيبته ؟ ؛ . . أتريد أن يقولوا إننا غرقنا فى شبر ماء ؟! . .

ففتح الملاحظ فاه . . وأشار إلى خضم جموع الأهالى المحتشدة ، حولنا ملوحة بعصيها ونبابيتها ، تهدر وتزمجر ، وتنفث من صدرها النار ومن عيونها الشرر ، ولا يدرى غير القدر متى يفلت زمام الغرائز ، فتقع الواقعة ، وتعصف العاصفة ، وتطغى الأمواج تجرف أمامها كل شىء . . ونكون نحن بأوراقنا ومحاضرنا وتحقيقنا أول المجروفين . .

لم ألق بالا إلى كل ذلك ... ومضيت فى تحقيق كأنى لا أرى شيئاً حولى . . حتى حصرنا المتهمين فى عشرين رجلا من الفريقين . . كلهم ضارب ومضروب . . . عدا القتلى وهما اثنان من الفريقين أيضاً . . . واستعرضت المتهمين العشرين أمامى ، وفى كل منهم إصابة ودم يسيل . . . فألفيت نفسى وسط شبكة معقدة تضل فيها الذاكرة . . . فالمتهم الأول ضرب الخامس والسابع والتاسع . . . والمتهم الثانى ضرب الأول والعاشر والرابع . . . والمتهم الثالث ضرب الحادى عشر والخامس عشر . . والمتهم الرابع ضرب الثانى والأول والتاسع عشر . . والمتهم الخامس ضرب الثالث والثامن والثانى عشر . . والمتهم السادس ضرب المتهم العشرين . . والمتهم العشرون ضرب السابع عشر . . . إلخ إلخ . . ولقد أنفقت الهزيع الأخير من الليل وأنا لم أزل أراجع وأحفظ هذا الحساب والترتيب والوضع ، وأخلط فيه وأخطئ وأتخبط ، فأعود من جديد أسأل : من ضرب من ؟ . . حتى ضاق صدرى ونفد صبرى ، وصحت أقول : أجئنا نضبط حادثة ضرب أم نتعلم جدول الضرب ؟ . .

ووصل عندئذ مفتش صحة المركز لفحص المصابين . . .
ولم يكن نظام الطب الشرعى قد امتد وقتئذ إلى الريف . . .
فلم يشق طريقه إلينا وسط الجموع إلا بشق الأنفس .

وأجرى الكشف الطبي على المصابين جميعاً ، ورأى نقلهم إلى مستشفى المركز . . . وكان فى هذا إنقاذ للموقف . . .

فقد استطعت أن أفهم الأهالى أنى لن ألقى القبض على أحد . . ولن أنظر اليوم فيمن اعتدى ومن اعتدى عليه . . . فالذى يهمنا الآن هو علاج المصابين . . . فهل يريد أحد منكم أيها الناس أن نترك نفراً من أهله ينزف دمه ، دون أن نبادر بإسعافه ؟ . .

فسكت الأهالى وأطرقوا مقتنعين . .

عندئذ قلت لهم :

ــ ساعدونا الآن على نقل مصابيكم إلى المستشفى ! .

فبادروا يلبون طائعين . . .

وكان الليل قد انصرم . . وطلع الفجر . . فقمت بمعاينة مكان الحادثة بغير ضجة . . تلك الحادثة التى نشأت من عراك طفلين من أهل البلدتين . . سب أحدهما الآخر

بقوله : « هى بلدكم فيها رجالة ؟ ! » . . فقام أهل بلدته لهذه الكلمة قومتهم . . ليثبتوا أنهم رجال . . وكانت تلك المعركة الدامية بين البلدتين ، التى لم يثبتوا بها إلا أنهم أطفال ؛ . .

وقد كانوا بالفعل أطفالا إلى النهاية . . . ثاروا لكلمة وهدأوا بكلمة . . واستطعنا أن نخرجهم من معاقلهم ونجرهم خلف سيارتنا العائدة فى الصباح إلى قلب المركز مع مصابيهم وشهودهم ، راضين صاغرين كقطيع من الحملان ! . .

خفت من نفسى

كان ذلك فى يوم من أيام عملى فى طنطا ، وكيلا لنيابة البندر . . دخل على فى مكتبى كاتب التحقيق وقدم إلى « محضر تلبس » . . قضية نصب على الطريقة الأمريكانية ، كما كانوا يقولون فى ذلك الوقت . . رجلان أنيقان فى سيارة « سبور » فخمة . . قدما من القاهرة فى طريقهما إلى الإسكندرية لحضور سباق الخيل . . فلما مرا بطنطا ، وقفا على حانوت « دخاخنى » وطلبا علبتين من السجاير ، و « فكة » ورقة من فئة العشرة جنيهات . . فبادر البائع المسكين إلى تلبية الطلب . . وكانا يصيحان به أن يسرع ، ويتكلمان بلهجة الأمر والنهى . . فما شك البائع فى أنه أمام رجلين جديرين بكل ثقة واحترام . . . فهرول يقدم إليهما السجاير المطلوبة وفوقها تسعة جنيهات ونحو ثمانين قرشاً . . وانتظر بأدب أن يدفعا إليه بالورقة ذات العشرة جنيهات . . ولكنهما لم يدفعا إلا محرك السيارة إلى الانطلاق ، فجعلت تسابق

الريح ، حاملة بضاعة البائع ونقوده ، بينما هو واقف . فاغراً فاه من الذهول ، لم تقبض كفه منهما غير الريح ! . . ولم يلبث أن ثاب إلى رشده ، فلطم وصاح وبكى ، وأقام السوق وأقعدها . . . ونهض الناس لكارثته ، وجرى رجال البوليس خلف السيارة يطلقون الصفافير . . وشاء الله أن يعطل سير السيارة ، وأن يدركها الناس والبوليس ، وأن يضبط الرجلان الوجيهان ، وأن يشهد عليهما كل أهل السوق بما لا يدع مجالا للشك فى سوء فعلهما . . .

كل ذلك طالعته فى « المحضر » . . وكونت فى الجريمة رأيى وهى ثابتة على الرجلين كل الثبوت . . .

فأمرت الحاجب أن يحضر أمامى المتهمين لاستجوابهما . . . فصدع بالأمر . . وفتح الباب . . وأدخل الرجلين الأنيقين . . فما كدت أراهما ويريانني ، حتى عقد الدهش لسانى ، وانطلق بالفرح لسانهما . . فأقبلا نحوى يقولان بدلال :

ــ أهلا .. أبو تيفه ! . .

ولم ينتظرا منى دعوة . . . فجذبا مقعدين وثيرين ، ارتميا فيهما بغير كلفة . . كأنهما فى دارهما . . وتنفسا الصعداء طويلا . .

كأنما الموضوع قد طوى . . والحادث قد محى من الأوراق . . .

وكان هذان الفاضلان من زملاء الدراسة ! . . .

ولم أدر أنا ما أفعل ولا ما أقول . . وطفقت أنظر إليهما وإلى « المحضر » وأعيد إلى ذاكرتى ما أعرفه عنهما . . . لقد كانا من الشباب المدلل . . . الذى انصرف عن الدرس إلى اللهو . . وترك مرحلة التعليم فى منتصف الطريق . . لينفق بجنون ما ورثه عن الآباء والأجداد . . . محتمل جداً أن يرتكب مثلهما هذا الجرم . . . بكل استخفاف واستهتار . . ولكن ماذا أنا فاعل أزاء هذا الاطمئنان العجيب البادى عليهما أمامى ؟ !

لقد كان المحضر الذى جاءونى به ، مصحوباً بحرز مختوم عليه بالشمع الأحمر ، يضم العلبتين من السجائر ، موضوع القضية ، والنقود « الفكة » . . فإذا بأحد الفاضلين يشير إلى الحرز ويقول :

ــ صنف يعجبك ! افتح لنا علبة وإعزم علينا يا أخى ! .

فقلت فى نفسى : « حقاً ! ليس ينقص إلا هذا . . اعزم على المتهمين بالمضبوطات ! » .

وجعل الآخر يحدثنى عن الأيام الأولى : ويذكرنى

بالشيخ « بنجر » الذى كان يقذف تلاميذ الفصل بمركوبه إلى أن خطر يوماً لهذا الزميل « المحترم » أن يكيد للشيخ . . فتعمد الوقوف أمام النافذة المفتوحة . وتحرش به . . فلما قذفه بالمركوب تنحى عن القذيفة بسرعة البرق ، فسقط المركوب فى الطريق . . وبقى الشيخ فى الفصل حافياً ، يلعن ويسب . .

وضحك الزميل الراوية ضحكاً مرتفعاً . . وعارضه صاحبه وحاكاه . . وانتظرا منى الضحك ، ولكنى فى حرجى وحيرتى أطرقت أنظر فى المحضر ، وأقلب صفحاته دون أن ألتفت إليهما . . فقال أحدهما وهو يشير إلى أوراقى :

ـ كلام فارغ كتبوه على مزاجهم ، اطلب لنا فنجان قهوة يا شيخ ! ! . أنت طول عمرك رجل كريم ! . . اطلب قهوة وقرفة وحيي ضيوفك .

فتصاممت . . وجعلت أفكر فى أمرهما . . هل آخذهما بالعنف ، وأفهمهما خطورة الموقف أو أسير فى إجراءاتى برفق وهدوء ولا أصدمهما ، وأقوم باستجوابى فى شكل محادثة لينة ، دون أن يشعرا بشىء ؟ ! .

آثرت الثانية . . وسألتهما مبتسماً عن الموضوع . . فأجابا

أنه تلفيق فى تلفيق . . فواجهتهما بأقوال الشهود وبالأدلة والقرائن والمضبوطات ، فتخبطا واضطربت إجاباتهما . . وتهربا من وطأة البراهين بالضحك والنكات . .

فتضاحكت أنا أيضاً . . ويدى تكتب فى ذيل المحضر وصف التهمة وتشفع ذلك بالقرار المعروف : « أمرنا بحبس المتهمين احتياطياً ويعمل لهما فيش وتشبيه . . إلخ »

وضغطت على زر الجرس . . فظهر الحاجب ، ونظر إليهما نظرة يدعوهما إلى الخروج معه ، وقد تسلم منى محضرهما . . فقال أحدهما وهو يلتفت إلى :

ـ طبعاً . . . إفراج ؟

وقال الثانى وهو ينظر إلى الساعة فى معصمه :

ـ أظن نلحق الشوط الأول فى السبق . . أورفوار يا أبو تيفه

فقلت مبتسما بهدوء :

ـ أورفوار ! . .

وخرجا من مكتبى بكل وقار ، وما كادا يصيران فى الردهة حتى وجدا من يأخذ بأيديهما ويضع فيها الحديد ! . .

وعند ذاك سمعت ضجة كبرى فى الردهة وأصواتاً ترتفع محتجة :

ـــ مستحيل ! مستحيل ! وكيل النيابة صديقنا ؛ زميلنا أمر بالإفراج . .

ولكن العسكر ، فيما يظهر ، شدوا السلاسل واقتادوهما إلى حيث ينفذون فيهما قرارى . . . فقد أخذت الضجة تخفت ، وصدى صياحهما يبتعد . . . حتى عاد السكون إلى المكان . . .

ومرت أربعة أيام . . . وجاء ميعاد تحديد أمر الحبس . . . وجاء بهما العسكر إلى جلسة المعارضة . . فنظرت إليهما وهمست « سبحان مغير الأحوال ! . . . »

لقد ذهبت الأناقة ، واختفت الابتسامة ، وولى الاستكبار والاستهتار . . وإذا أنا أمام رجلين طال منهما شعر الذقن ، وتمزقت الثياب من شد العسكرى وجذب السجان ، واتسخت الأبدان من الرقاد على الأسفلت . . وانطفأت نظرة التدلل والانكسار . . وخرس لسان العز ، وهتف صوت التذلل والاستعطاف . . .

قلت فى نفسى ، وأنا أسترق إليهما النظر : جملة صغيرة من قلمى الأحمر فى ذيل المحضر ، صيرتهما إلى ما أرى من المذلة والهوان . . وإلى ما لن أرى من المستقبل المظلم والمصير

المدلهم ! . . هذان الزميلان القديمان قد كتب عليهما أن يقعا فى يدى لأغير حياتهما الباسمة ، وأنتزعهما من حلبة السباق ، لألقى بهما فى غياهب السجون ! . . كلمة صغيرة منى ! . . يا للهول ! . . لو أنى جعلتهما « نأمر بالإفراج عن المتهمين بالضمان المالى ... إلخ » لكانا اليوم فى الإسكندرية ينعمان بنسيم البحر ، وينطلقان بالسيارة الفاخرة ، ويطلقان الضحكات الساخرة . . . ولكنى أمرت بالحبس . . .

عبارة صغيرة منى تغير مصائر الناس إلى هذا الحد ؟ ! . إنى إذن لرجل مخيف ! . . .

ولأول مرة وقع فى نفسى شعور الخوف من نفسى ! . . .

لطالما أمرت بحبس كثير من الناس . . ولكنى ما كنت أعرفهم إلا من المحاضر والأوراق . . كانوا مادة عملى اليومى . . . أتصرف فى مصائرهم دون وعى أو اهتمام بأمرهم . . شأنى شأن الطاهى الذى يذبح فى كل يوم الدجاج والحمام والأرانب ، دون أن يخطر له الرثاء لحالها ، أو البحث فى مآل صغارها ، أو التفكير فيما أحدثه من تغيير فى مجرى حياتها . . .

أما هذان الزميلان ، فإنى أعرفهما وعشت معهما ،

لحظات من العمر . هى أصفى وأجمل ما يحفظه الإنسان من أيام عمره . . ومهما يكن من أمر ذنبهما ، فإن يدى هى التى بطشت بهما . . وقررت مصيرهما . . . وغيرت وبدلت فى صفحة حياتهما .

وهبنى أخطأت فى تقدير الأدلة ووزن التهمة ، وأنا لست بمعصوم ، فأى كارثة أنزلتها بمستقبل زميلين !

يالى من رجل مخيف ! . ما هذه القسوة التى فى يدى ؟ ! . ما هذا الجبروت ! ! . إذا أصبت أو أخطأت ، فإن قرارى صاعقة تهبط على رؤوس الناس ، فتحدث فى شؤونهم الأحداث . . من أعرف منهم ومن لا أعرف . . .

وشيعت الزميلين بنظرة أخيرة ، والحرس يعودون بهما إلى السجن وقد تجدد أمر حبسهما على ذمة القضية . . فذهبا يائسين محطمين وقد أسودت الدنيا فى عيونهما المنطفئة ، بينما أطرقت أنا ، وهتفت من أعماق نفسى المرتاعة :

ـ اللهم اكفنى واكف الناس شرى ؛ . . .

مفتش «كعك»

لم أكن من هواة كعك العيد أو من عشاقه المعاميد، وكنت إذا ذكر أمامى هذا الاسم المكون من ثلاثة حروف يخرج من بينها حرف حلقى أحس كأن شيئاً سيخرج من حلقى ! . . وكنت كلما قرأت فى حوادث الصحف عن تلك المشاجرات التى تقع بسبب هذا الكعك بين زوجين قلت : مجانين ! . . إلى أن ابتليت . . ومن عاب ابتلى . .

بدأ حبى لهذا الكعك فى بداية اشتغالى بالقضاء . . فقد كان العام الأول لتعيينى يفرض على العمل دون حق فى إجازة . . وجاء عيد الفطر المبارك فقام زملائى بأجازاتهم ، وتركونى أنهض بأعمالهم .

أذعنت واستسلمت وخفضت الرأس مكسور الجناح ، وقلت : «سبحان الله ! . . كل الخلائق تعيد بين الأهل والآباء والأبناء . . وأنا أعيد بين ملفات الجنح . والعوارض والمخالفات ! . . »

وكانت صفافير الأطفال تخرق أذنى ، فأترك أوراقى وأنهض إلى النافذة أبصر فى الميدان الناس فى حللهم الجديدة والصبيان فى أثوابهم الحمر والخضر والصفر ينفخون فى «الأنابيل» ويصخبون بهز « الشخاشيخ » ويتجمعون و يتفرقون كالنمل حول « المراجيح » المنصوبة بأعلامها الخفاقة وبيادرها الهفافة ! . . فأكتئب وأقول فى نفسى : لا أنا طفل يحلو لى أن أفعل ما يفعل الأطفال ولا أنا رجل أسعد اليوم بما يسعد به الرجال . . ولكنى مخلوق فرض فيه أن يعيش بلا قلب ولا شعور وسط عالم يصيح بالفرح والهناء . . مخلوق كل عمله اليوم أن ينتظر حتى ينقلب الفرح إلى ترح . . وتتحطم أطباق الوليمة . . هكذا جلست فى مكتبى أتلقى أوراق الحوادث التى يسفر عنها العيد . . من نشل محفظة قروى . . وتعدى سكران عربيد ومضاربة بين تجار فسيخ إلى سقوط طفل من أرجوحة إلخ . . إنه الوجه الآخر السيئ من العيد هو وحده الذى سمح لى أن أتأمله وأحلق فيه . . .

ولكن الله لا ينسى المحرومين ، فقد أرسل إلى زميلا متزوجاً فى المدينة ، دعانى إلى زيارته قائلا :

ــ تعال أذقك كعكنا ! !

فكدت أصيح :

ــ كعك ؛ أعوذ بالله ! . .

ولكني تذكرت ما أنا فيه . . من وحدة وهم وغم . . فقلت : ليس هذا وقت البطر والتمنع والترفع . . . مهما يكن « الكعك » فلن يكون أثقل ولا أمر من ملفات الجنح . . . وذهبت وقدم لى صاحبي فنجاناً من القهوة وطبقاً من كعك العيد بوجهه المنقوش ، وسكره المرشوش . . فتناولت كعكة وقضمت و بلعت. عجباً ! . . يا له من استكشاف ! . إنه لذيذ . . إنه ألذ شيء ذقته فى حياتى . . أترانى أبالغ ؟ . . أتراها مرارة حياتى جعلت كل شيء فى فمى لذيذاً . . لست أدرى ولكن الذى أعرفه أنى أحببت الكعك . . وتناولت كعكة ثانية وثالثة . . وأفضيت إلى صاحبي باعجابى فقال متواضعاً :

ــ وكيف لو ذقت كعك قاضى البندر ؟ .

ــ وكيف السبيل إلى ذلك ؟ .

ــ هلم بنا نزره ونعيد عليه . . . إنه هنا مع أسرته ولم يسافر . . .

ــ هلم . . .

وذهبنا وقدم إلينا كعكه . فإذا هو حقاً أتقن صنعاً وأمتع طعماً ، فأبديت عجبى وإعجابى ، فقال قاضى البندر .

ــ وكيف لو ذقت كعك قاضى المركز ؟

ــ أهو هنا ؟ .

ولم أتم . . فقد عولت على زيارته فوراً . .

وذهبت بالفعل إلى قاضى المركز وقدم إلى طبقه ، فذقت وقد أصبحت لى خبرة تمكننى من الحكم على دقة الصنعة وجودة الدقيق وامتياز السمن منذ القضمة الأولى . . فحكمت له . . فقال لى :

ــ إذا كنت تريد حقاً أن تذوق كعكاً فذق من كعك القاضى الشرعى ! . . .

فلم أجب ولم أراجع . . . ويممت فى صمت إلى منزل القاضى الشرعى . . وقدم إلى كعكه . . . فما كادت رائحته تبلغ أنفى حتى أدركت لطول مرانى حقيقة أمره . فقلت فى نشوة :

ــ نعم . . نعم . . هذا هو الكعك ! . .

ومضى العيد هكذا . . . وأنا أنتقل من طبق إلى طبق . .
بعد أن كان مقدراً لى أن أنتقل من جنحة إلى جنحة . . .
وعاد زملائى ورؤسائى إلى أعمالهم يسألوننى :

ـ ماذا فعلت فى العيد .

فقلت مزهواً كمن استكشف فى نفسه موهبة :

ـ اشتغلت « مفتش » . .

ـ مفتش قضائى ؟

ـ مفتش كعك ! .

الباحثون عن العدل !

إذا كان على الأرض عدل فإنه يجب التفريق بين مهنة : تتحمل أعباءها ساعات محددة ، ومهنة لا حدود فيها لمتبعاتك . . قد تنتزع من فراشك انتزاعاً لتلبي نداءها ، وتلغي راحتك إلغاءً لتؤدي نحوها واجبك . . . يجب التفريق بين مهنة ترتدى كالقميص فى الصباح وتخلع عند الظهر . . . ومهنة كالخاتم النارى يطبع جسمك وشخصك وروحك وضميرك ، فلا تخلع عنك صفتك فى بيت ولا مكتب ، ولا فى ليل ولا فى نهار . . يدخل فى باب هذه المهنة الأخيرة رجال البوليس ، ورجال القضاء . . . ولقد رأيت بعيني الجهد الذى يضنى هؤلاء وهؤلاء ، فقد كنت واحداً منهم فى يوم من الأيام . . . ولن أنسى تلك الليالى التى كنت أمضيها فى الأرياف ، استمع إلى نقيق الضفادع فى الغيطان ، وأتصرف فى أكداس ملفات الجنح والمخالفات تحت ضوء « لمبة » نمرة خمسة قد اجتمع عليها الناموس والهاموش... فإذا فرغت من عملى ومن عشائى ، وقمت إلى فراشى موجع

الظهر كالمضروب بالسياط ، التمس ذخيرة من راحة أواجه بها الغد ، فإنى أنهض وأنا اتسمع وقع الأقدام فى الطريق ، خشية أن يكون الخفير النظامى مقبلا عن جناية تنزع عنى راحة الليل التى هى من حق الدابة والوحش والطير . . . كنت أحياناً أحسد السجين الذى أستجوبه وأودعه السجن . . وأقول : «هذا على الأقل يملك ليله . . . أما أنا فحتى ليلى ليس ملكى ! . .

أما رجل البوليس فله مثل هذا النصيب وأكثر . . . فإن كل مصيبة تخطر فى بال الحكومة لا يمكن أن توضع إلا على كاهل البوليس . . . فهو المسئول عن الأمن والنظام والضرائب والأموال وتنفيذ الأحكام الجنائية والمدنية والشرعية ، والتعليمات الخاصة بالرى والقرعة وضبط الأسلحة وتهريب المخدرات والممنوعات . . إلخ . . .

كل وزارة من وزارات الدولة تلقى حملها على هذه النجوم أو « الضبابير » المثبتة فوق كتفى رجل البوليس . . . ووالله لو كان لهذه « الضبابير » أجنحة لطارت من هول ما يلقى عليها ، ولو كانت من نجوم السماء ، لفضلت أن تدور فى فلك الشمس على أن تدور مع حضرة المأمور أو الضابط فى خط سيره

اليومى . . .

كنت أقول لزملائى من رجال البوليس ونحن نقوم ليلا إلى الوقائع الجنائية « لا تتبرموا . . هذا واجبنا ... نحن الساهرين على أمن البلاد ! . . . » .

فكان يهمس من بينهم صوت : « لو ساوونا فقط بأولئك الساهرين فى النوادى والكلوبات ؟ »

المساواة ! . . هذا شىء ليس من حقنا أن نطلبه . . . ولكن الذى نطمع فيه هو أن يكون هنالك ميزان عدل . . يزن جهودنا ، ويقدر لها حقها ويمنح هذا الحق فى مواعيده بلا مماطلة ولا إبطاء . . .

* * *

كنت أقول ذلك وأنا أحس فى قرارة نفسى مرارة الظلم الذى أعانيه . . . فما من أحد يحفل بمنحى الدرجة التى كنت أستحقها لا بحكم عملى المرهق ، ولا بحكم وضعى القضائى . . . إلى أن نقلت من هذا السلك إلى وظيفة فى وزارة من الوزارات . . . حيث جلست فى حجرة أنيقة الرياش ، وقد ألحقوا بى « سكرتيراً » خاصاً . . . يضرب على الآلة الكاتبة خطاباً واحداً كل أسبوع .

فإذا الدرجات تنهال على تقديراً لما أقوم به من أعمال . . . هى تناول القهوة ومطالعة الصحف والمحادثة فى التليفونات . . . والانصراف إلى الغداء والنوم والملاهى والسهرات ! . .

وسرعان ما نسيت الظلم والعدل . . . إلى أن جاءنى زميل قديم ، كان معاون إدارة ، وظل بعد تلك الأعوام كما كان . . قال لى :

ـ أتعرف « ما هو معاون الإدارة ؟ . . » هو حمار السباخ فى المديرية أو المركز . . . نعم . . . أنا حمار سباخ حضرة المأمور . . . يلقى فى « الغبيط » الذى على ظهرى كل ما قبح وقذر وشق وثقل من أعمال . . . وهيهات مع ذلك أن تلمع على كتفى نجوم ! . . .

ـ أتريد هذه النجوم ؟ . . .

ـ هذا أمل بعيد . . . أبعد من نجوم السماء ! . . . ولكنه العدل . . ذلك العدل الذى لا يوجد إلا فوق . . .

وأشار إلى السماء . . . إشارة نمت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ ! . . . فقلت له :

ـ ما دمت تؤمن أن فى السماء عدلا . . . فلا بد أن يهبط

منه يوماً شيء على هذه الأرض . . .

وانصرف الرجل . . . وتركني أفكر . . . وحلقت في التفكير حتى وصلت إلى ما تخيلته السماء . . فوجدت عجباً . . . وجدت بهواً متسعاً . . . فيه رهط من الملائكة على مكاتب . . . وقد بدت عليهم الراحة وما يشبه التثاؤب وإذا ملاك يدخل عليهم كما دخل على « معاون الإدارة » ، قد ظهر عليه الجهد والتعب ، وهو يصيح فيهم :

ـ أتعرفون من هو عزرائيل . ؟ هو الجراب الذى تلقى فيه لعنات البشر . . . هو العمل المتصل . . . الذى لا يعرف فترة راحة ولا همود . . هو اليقظة بالنهار والسهر بالليل . . هو الذى يقوم بعمله وحده منذ بدء الخليقة . . . فيقبض الأرواح التى تزداد على مدى الأحقاب عدداً . . . فى كل يوم يضاف إلى ما يثقل كاهلى صنف جديد من أصناف الموت . . . لم يعد الطوفان بكاف . . . ولا الحروب ولا الطاعون . . . لقد اخترعوا قنبلة ذرية . . . تحصد مئات مئات الألوف فى لمحة عين . . . فأقع فى حيص بيص بمفردى فى الميدان ، أجمع هذه الألوف المؤلفة من الأرواح . . . مسرعاً مضطرباً خائفاً أن

يفلت منى بعضها ، أو ترد فيه الروح ، قبل أن أقبضها . . فأحاسب على الإهمال . . أنا أصنع هذا كله ، علاوة على عملى الأصلى . . بينما أنتم تجلسون على هذه الأرائك ، لا تصنعون شيئاً . . . وتحسبون مثلى وفى مرتبتى من الملائكة . . . وربما أشرف منى وأولى أحيانا بالتقديم . . .

فارتفع صوت احتجاج من بين صفوف الملائكة الجالسين :

ـ نحن لا نصنع شيئاً ؟ ؛ . . .

ـ طبعاً . . . ماذا تصنع أنت الآن يا جبريل ؟ . . لقد كنت تهبط لتبلغ الأنبياء . . وقد انتهى عهد التبليغ والأنبياء . . فما هو عملك الآن ؟ . أخبرنى ؟ . وأنت يا إسرافيل . . كل عملك أن تنفخ فى الصور يوم القيامة ، فمن الآن إلى يوم القيامة ، ماذا تصنع ؟ أخبرنى ؟ . . أنا مظلوم يا إخوانى ! . . أنا مرهق بالعمل . أعبائى تزداد كل يوم ثقلا . . أنا وحدى من دون الجميع الذى تتضخم أعماله . . بالأمس كان الواحد يغتال الآخر بسكين أو برصاصة . . أما اليوم فهو يستخدم قنبلة تودى بعشرات من الأبرياء . . . هذه كلها أليست أرواحاً جديدة محسوبة على أنا ؟ . . ومع ذلك لم يفكر أحد فى انتداب ملاك

جديد يساعدنى ، بل لم يفكر أحد فى إنصافى ورفع درجتى بين زملائى . . أو رفع مستواى بما يتفق مع الزيادة فى العمل . .

ولم أسترسل فى الخيال أكثر من ذلك . فقد هبطت الأرض فجأة على صوت باب حجرتى يفتح ، وقد ظهر معاون الإدارة وقد عاد يقول :

ــ لا تؤخذنى . . فكرة خطرت لى وأنا ذاهب فرأيت أن أرجع لأخبرك بها . . إن لم يكن هنالك أمل فى « نجوم السماء » فلا أقل من النظر فى أمر إنصافى ورفع مستواى بما يتفق مع أعمالى . .

فقاطعته على غير وعى منى :

ــ أنت أيضاً ؟ ! .

ــ أنا أيضاً ماذا ؟ .

قالها محملقاً فى بعينيه من خلف منظاره ذى الإطار المعدنى الأبيض . فقلت له وأنا أحلق بفكرى :

ــ اسمع يا حضرة المعاون ! . . عند ما خلق الله « التمييز » خلقه فى كل مكان وفى كل شىء . . التمييز بين الحظوظ . . . والمصائر والأقدار ، كالتمييز بين الحسن والقبيح ، والصحة

والمرض ، والليل والنهار . . لا يوجد شيء اسمه عدل مطلقاً . . كما لا يوجد ما يسمى السعادة المطلقة . . إنما الإنسان الواحد تتناوبه حالات مختلفة من عدل وظلم ، وسعادة وشقاء ، وصحة ومرض ، وليل ونهار . . فإذا طلبت العدل المطلق فأنت كمن يطلب نهاراً بلا ليل . . لقد كان من حظك أن تخلو كتفاك من ضوء النجوم . . هل لك أولاد ؟ . .

ـــ عندى ولد . . .

ـــ هذا هو الذى قد تشرق عليه نجوم السماء ! . . إن العدل قد يلحقك فى عقبك وخلفك . . وقد يحرمهم القدر ما سخا به عليك . إن حسابنا الجارى على الأرض لا يفتح لحياة واحدة ولا يغلق بانتهائها وحدها . . حتى « عزرائيل » الذى يشكو من كثرة العمل ، سيأتى يوم يرتاح فيه إلى الأبد . . . عند ما تقوم القيامة ويلغى الموت . . فلا يجد غير الأرائك يتكىء عليها ويتثاءب ويحسده الآخرون كما كان يحسدهم . . .

ـــ عزرائيل ! . وما دخل عزرائيل هنا ؟ ! . .

قالها المعاون دهشاً . . وهو يفحصنى بعينيه الضعيفتين . . فتنبهت وقلت له على الفور :

ـ عفواً . . هذا موضوع آخر . . بيني وبينه ! . . المهم أن على الإنسان و . . « غير الإنسان » أن يتحمل حظه بشجاعة وأن يرتدى « الدور » الذى ألقى عليه بصبر وجلد . . وأن ينتظر ثابتاً آملا دورة العجلة الكبرى للقدر . . تلك العجلة التى لا تكف عن الدوران ، فتضع الأسفل فى الأعلى والأعلى فى الأسفل . وهكذا دواليك .

كان لى صديق ، يا حضرة المعاون ، كلما أصابه سوء ؛ وأردنا أن نهون عليه، صاح فينا صابراً : « ماعلهش »! . . هو الفلك تسمر ؟ ! . . » .

فأطرق المعاون ، وطفق يردد هامساً هذه الجملة مقتنعاً مؤمناً . . . وكأنما دخل قلبه الأمل والعزاء . . ولكنى استأنفت قائلا له :

ـ هذا موقفنا نحو الله . . . معشر البشر . . ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لنا موقف آخر نحو أنفسنا . . إن الله لن يزيل القبح ولا المرض ولا الظلم ولا الليل . . لأن وجود الأضداد من النواميس اللازمة للخليقة . . ولكن على البشر أن يدرأوا ما استطاعوا ، عن أنفسهم الضرر . . وعليهم أن يسعوا

فى سبيل الصحة والجمال. وأن يكافحوا من أجل العدالة والنور .

– وكيف نكافح ضد ما خلقه الله ؟ ؛ .

– إن الله قد وضع فى كل شىء بذور ضده . . فإذا فتحت مغاليق المرض وجدت فيه بذرة الصحة ، وفى القبح بذرة الحسن ، وفى الظلم بذرة العدل . . وفى الليل بذرة الفجر ! .

إن الكون أدق مما تتصور صنعاً . . والله أبرع مما تتصور صانعاً . . ولم يترك شيئاً للفوضى : . . .

– وما عمل البشر إذن ؟ . .

– فلح الأرض . . واستخراج البذور ، واستنباتها . . . زرعاً نضراً وثمراً شهياً . .

الطاجن وصل ! . .

كانت المشكلة التى تشغلنا أكثر مما يشغلنا عملنا هى مسألة الطعام ، وهل فى ذلك عجب ؟ . . إن الطعام هو مشكلة الأمس واليوم والغد . . وهو الذى تقوم من أجله الحروب ! وتعقد من أجله المؤتمرات . . . على أن مشكلتنا كانت أعوص من أى مسألة طرحت على موائد البحث . . لأنها لم تكن متعلقة بالطعام ذاته . . بل بطهى الطعام .

ولقد طرحنا وجوهها على موائد الأكل ، حتى انتهى بنا الأمر إلى قبول الواقع بغير بحث . . .

كنا ثلاثة — منذ عهد بعيد طبعاً — نقطن مسكناً فى مدينة دمنهور : قاضى البندر ووكيل نيابتها وهو أنا ولا فخر ، ثم قاضى إيتياى البارود . . وكانت النفقة بيننا بالثلث فى كل شىء . . وكان زميلاى متزوجين ، ولهما بيتاهما فى القاهرة . . . ولكن ضرورة العمل ونظام الجلسات . اللذين يقتضيان بعدهما عن بيتيهما فى العاصمة أربعة أيام فى الأسبوع ، فرضا عليهما

هذه التكاليف الإضافية . . فكان من مصلحتهما الاقتصاد غاية الاقتصاد . . . وأدى بهما خوفهما من ترك الحبل على الغارب أن قررا وضع نظام لشئون مسكننا يماثل نظام الجلسة القضائية فى محاكم الاستئناف ، أى أن يكون الحكم للأغلبية . . فأنا مثلا لا أستطيع أن أنفرد باختراع لون من ألوان الطعام إلا أن يؤيدنى واحد منهما . . وهكذا الحال مع الجميع . . وكان لنا خادم يقوم على خدمتنا ولكنه لا يفقه شيئاً فى طهى الطعام .. وكان ضئيل المرتب ، فحكمت الأغلبية ببقائه مع عدم الاعتراض على ما يقدمه ويسميه مأكولا . . حتى جاء الفرج ذات يوم فى صورة اقتراح تقدم به « حاجب الجلسة » الذى رثى لحالنا . . . فقال أعزه الله :

ـ إذا شئتم يا أصحاب السعادة فإن امرأتى تعد لكم الطعام فى دارنا كل يوم واحمله إليكم ساعة الغداء ؛ . .

فوافقت الأغلبية على شرط أن يكون الطعام مما يطهى فى الفرن لنضمن البساطة والنظافة . . .

منذ ذلك اليوم ونحن لا نأكل إلا فى « طاجن » من فخار أحمر . . . قد أسود من القدم والدخان « وهباب » الفرن . . تلقى

لنا فيه امرأة الحاجب قدراً من البطاطس وقدراً من اللحم. . . يتناقص مع الأيام . . دون أن تنقص النقود . . . فلا يكاد يكفى بطوننا . وفيها بطن قاضى إيتياى وهو رجل عربى الأصل سليل قبيلة من قبائل البدو، يضرب بلقمته قاع الطاجن ؛ فإذا أضخم اللحم وأطيبه قد وقع له . . . ولا يقوم من المائدة حتى يمسح قعر الوعاء بآخر كسرة ونحن نصيح فيه :

ــ اترك شيئاً لغداء الخادم ! .

ــ غذاؤه على الله . . إن الله لا يترك مظلوماً ! . .

يقولها وهو ينهض عن الخوان يجرع من « القلة » ويتجشأ ... وصرنا منذ ذلك الحين لا نسمى خادمنا باسمه . . بل أطلقنا عليه اسم « المظلوم » . . وجعلنا لا نناديه إلا بقولنا : « هات يا مظلوم كوب ماء » . . « امسح يا مظلوم الحذاء! . . » وهلم جرا . .

وكان يسمعنا أحياناً بعض الزوار من الأصدقاء ، ونحن ننادى خادمنا بهذا الوصف. . . فيتساءلون دهشين :

ــ أيوجد مظلوم بينكم ؟ ؛ وأنتم كلكم رمز العدالة ؟ !

فيقول قاضى ايتياى البارود ببديهته الحاضرة :

ــ حيث توجد العدالة يوجد الظلم ؛ . . .

وكان قاضى إيتياى يمضى إلى جلسته بقطار الصباح الباكر ويعود بقطار الساعة الواحدة ظهراً . . . وهو يحرص على إنهاء جلسته فى هذا الميعاد ليلحق بهذا القطار . . . لأنه إذا فاته فلن يجد أمامه غير قطار يصل إلى دمنهور فى منتصف الثالثة ، والمجىء به ، لا قدر الله ، معناه المجىء بعد موعد الغداء وفراغ الطاجن وإنصاف « المظلوم » ! ! .

وكنا نحن من جانبنا : أنا وقاضى البندر . . وعملنا متحد فى جلسات الجنح . . والجلسة تتشكل منه ومنى . . نحرص على إنهاء الجلسة قبيل موعد حضور القطار القادم من إيتياى البارود ، فقد تشاء أحياناً المصادفة السيئة أن يتم إنضاج الطاجن فى الساعة الواحدة . . وأن يسبقنا إليه قاضى إيتياى . . فإذا حدث هذا والعياذ بالله ، فنحن أمام كارثة لا نستطيع لها دفعاً ولا رداً . .

أخذتنا ذات مرة حماسة العمل وكثرة القضايا المعروضة على المحكمة . . فنسينا الوقت ونسينا أنفسنا ، وإذا حاجب الجلسة ينظر فى ساعته ويقبل مسرعاً يهمس بقرب المنصة :

ــ الطاجن وصل البيت من بدرى . وقطر إيتياى البارود

وصل المحطة من زمان ! . .

— راح الغداء وعلينا العفاء ؛

لفظها القاضى يائساً ثم نظر إلى قائلا بصوت مرتفع :

— ما رأى النيابة ؟

— النيابة فوضت الرأى للمحكمة . . .

— ترفع الجلسة للاستراحة . . على أن تعقد فى الساعة الخامسة بعد الظهر ! . .

ونهض من كرسيه يخلع وسامه الأحمر . . وأنا فى أثره أخلع وسامى الأحمر الأخضر . . ووثبنا إلى قاعة المداولة نطرح فيها ملفاتنا . . . وخرجنا إلى عرض الطريق راكضين ونحن نقول :

— يا نلحق الطاجن . . يا منلحقهوش ! . .

* * *

لبثنا على هذا الحال زمناً . . . لا طعام لنا إلا طاجن البطاطس فى الفرن . . حتى عاد قاضي البندر من القاهرة ذات يوم يقول لنا . . وكأنه ينبهنا من غفلة :

— يا لعجب أمرنا . ! حتى مجرد الذوق كدنا نفقده ! . .

ذكرت لزوجتى عرضاً مسألة الطاجن . . فدهشت وقالت :

« ألا توجد عندكم صينية ؟ . هل يوجد ألذ من صينية البطاطس فى الفرن ! . . دعكم من هذا الطاجن وجربوا الصينية يا ناس ؟»

فصحنا بزميلنا الطموح :

ــ ومن أين لنا الصينية ؟ .

ــ نشتريها .

ــ أنا لا أدفع أكثر من عشرة قروش ! . .

قالها قاضى إيتياى وهو يخرج نصيبه من جيبه قطعة فضية . وأخذنا الأصوات . . . فأقرت الأغلبية الموافقة على شراء الصينية على شرط أن لا يتجاوز ثمنها ثلاثين قرشاً . . وبادرنا فأفضينا برغبتنا إلى حاجب الجلسة . . . فهرش رأسه ثم قال . .

ــ صينية نحاس بـ « ثلاثين قرش » ؟ ! . .

مستحيل ! . . أقل من خمسين أو ستين « قرش » . .

ــ هذا جنون ! . ستين « قرش » ! لا . . لا داعى أبداً فلنبق على الطاجن إلى آخر الدهر ! . قلناها جميعاً بصوت واحد ، وأقفل باب المناقشة فى هذا الشأن . . وانتقلنا إلى جدول الأعمال . . ومضى كل منا إلى عمله . . قاضى إيتياى ركب القطار إلى محكمته . . وأنا وقاضى البندر ذهبنا إلى محكمتنا حيث

تنتظرنا أكداس المخالفات والجنح . . وظل حاجب المحكمة بباب الجلسة ينادى على القضايا . . وظلت القضايا تتوالى أمامنا . والأحكام تترى من فم المحكمة كأنها طلقات من مدفع حتى عرضت علينا قضية رجل اتهم بأنه ضرب زوجته بعصا فأحدث بها إصابات اقتضت علاجاً أقل من عشرين يوماً . . فما كاد الرجل يمثل أمام المنصة ، حتى نهض محام يقول :

ـ حاضر مع المتهم ؛ . .

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة . . فالتفت إلى القاضى ، وفى عينيه نظرة فهمت معناها . . فأنا أيضاً كان يجول فى خاطرى عين المعنى . . محام الآن ؟ . . ومرافعة بإسهاب وبيان ؟ ! . . ما من شىء بالطبع يستعجل هذا المحامى وما من خطر يهدد غداءه . . فإن الله لم يبتله بقاضى إيتياى . . . وبادرت المحكمة تسأل المتهم بسرعة :

ـ اسمك ؟ .

ـ محمد عبد المغيث شمروخ .

وأراد المحامى أن يتظرف فقال :

ـ اسمه « شمروخ » ولكن الضرب حصل بعصا رفيعة ! . .

فلم يبد على المحكمة التفات إلى ذلك المحامى « الرايق » . .
وجعل القاضى يقلب فى أوراق الملف ويبحث عن التقرير
الطبى . . . وهو يتابع أسئلته بصوت آلى . .

ــ عمرك ؟ .

ــ حوالى خمس وثلاثين سنة .

ــ صناعتك ؟ .

ــ صانع صوانى نحاس ؟ .

وهنا حدث انقلاب فى هيئة المحكمة . . فقد ترك القاضى
الملف ورفع رأسه ناظراً إلى المتهم باهتمام . . وكذلك فعلت
النيابة . . وأقبل القاضى على المتهم يسأله بعناية :

ــ صوانى نحاس مما يستعمل فى الأكل ؟ .

ــ فى الأكل وغير الأكل . . حسب طلب الزبون . . .

ــ تقصد صوانى مما يطهى فيها البطاطس فى الفرن مثلا ؟ ! .

ــ بطاطس يا سعادة البك وفطير ومكرونة . . وكل لوازم
الفرن . . .

ــ قل لنا الآن بالضبط . . . صينية نحاس تتسع لأقتين
بطاطس وأقة لحم ؟ . .

وعندئذ تدخلت النيابة فى شخصى . .

ــ لتكن بحيث تتسع لثلاث أقات بطاطس وأقة ونصف من اللحم . . يجب أن نحسب حساب « المظلوم » ! . . .

فوافق القاضى على ملاحظتى . . وقال مؤيداً :

ــ صدقت . . يجب منذ اليوم إنصاف « المظلوم » ! . .

وأشرق لهذه الجملة وجه المتهم ، فهتف من أعماق قلبه :

ــ يحيي العدل ! . . أنت يا سعادة القاضى كلك نظر . . وعرفت أنى مظلوم ! . . فليحيي العدل ! . .

وظن المتهم أن المحكمة قد برأته . . ولم يفهم المحامى من الأمر شيئاً ! . . فالمحكمة لم تسأل المتهم بعد عن ضرب ولا لطم ، وتحرك المتهم للانصراف . . فبادره القاضى صائحاً فيه :

ــ تعال يا راجل ! . . قف مكانك . . ورد على أسئلة المحكمة ! . .

ــ محسوبك يا سعادة البك . . .

ــ لنعد أولا إلى مسألة الصينية . . وما هو الحجم . . . حجم الصينية المذكورة ؟ . .

ولم ير المحامى فى هذه المناقشة الغريبة بصيصاً يمكنه من

تتبعها ، فأخذ يقلب على عجل أوراق صورة المحضر فى ملفه . . ويهز رأسه حيرة وعجباً وعجزاً . . . وأنتهى به الأمر أن قام يقول :

ـ يا حضرة الرئيس . . الضرب كما هو مدون فى محضر البوليس ومن أقوال المجنى عليها حدث من عصا رفيعة وليس من صينية نحاس ! . .

ـ لحظة يا حضرة المحامى . . لحظة . .

قالها القاضى وهو ينظر إلى المتهم ماضياً فى سؤاله . . .

ـ أخبرنا ما هو حجم الصينية بكل دقة . .

ـ هذا شىء حسب الوزن يا سعادة البك ! . . .

ـ الصينية الصغيرة وزنها ثلاثة أرطال . . . والمتوسطة ما بين خمسة وستة .

فقلت للرجل من كرسى النيابة :

ـ أعمل حسابك على ستة أرطال ! . .

فصاح القاضى بقوله :

ـ هذا معقول ! . . . صينية ستة أرطال . .

وطفق المحامى المسكين يسمع هذا الكلام . . وهو كالمذهول

ينقل عينه وأذنه بين القاضي ووكيل النيابة والمتهم ؛ ويحاول أن يفهم مما يدور بينهم شيئاً فلا يستطيع فيعود إلى ملفاته يقلب صفحاتها بسرعة . . وهو يقول كالمخاطب نفسه :

أنا قرأت القضية ، لو لم أقرأ القضية . .

ولم يطق صبراً فجعل يهمهم فى مجلسه ويزفر ويهدر :

ــ لو كانت المحكمة تدلنى أين ورد ذكر الصينية فى الأوراق ، لا فى محضر التحقيق ولا فى التقرير الطبى ولا على لسان الشهود . . ما من إشارة عابرة إلى صينية ؟ سأجن يا ناس وأفقد عقلى ! . .

ومع ذلك فكان عليه أن ينتظر مرغماً حتى تنتهى المحكمة من استجواب موكله . . . ففرك جبهته بكفه ، وركز انتباهه طلباً للفهم . . والمحكمة ماضية فى سؤالها . .

ــ وما سعر الرطل النحاس ؟ . .

ــ سعر السوق اليوم حوالى خمسة قروش .

ــ أى أن الصينية المتوسطة الحجم ثمنها نحو ثلاثين قرشاً . .

ــ تقريباً . . .

وكان حاجب الجلسة قد أرهف أذنيه عندما وصل الحديث

إلى السعر . . . فما كاد يسمع أن الصينية ثمنها ثلاثون قرشاً حتى هاج وماج . . . وزمجر وصاح من مكانه :

ـ تصدق المجرم ده يا سعادة البك ؟ ؟ .

فالتفت المحامى ، وقد أخذته البغتة والدهشة من كل مكان..

فها هوذا حاجب الجلسة أيضاً قد دخل فى الموضوع . . . وقد فهم المضمون . . القاضى والنيابة والمتهم والحاجب . . . كلهم يتحاورون فى أمر هو وحده الذى لا يدرك كنهه . . . هو المحامى الذى قرأ القضية وأعد مرافعته البليغة فيها . . . وهيأ لها جوها . . . حتى النكتة الرائقة ، والإشارة البارعة . . ودرس كل ظروفها . . واحتاط لكل مفاجآتها . ها هى ذى مفاجأة ما كان ينتظرها . . وما كانت لتخطر له على بال . . كنت أبصر على وجهه فى تلك اللحظة هيئة لن أنساها . . لقد كان مضحكاً فى حيرته إلى حد لا يتصوره . . ولو رآه لضحك هو منه حتى آخر حياته . . . ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلا . . فسرعان ما انتهينا من مسألة الصينية وعدنا إلى موضوع القضية الأصلية . . . واستطاع القاضى أن يحول دفة المناقشة بلباقة حتى دخل بها جوهر التهمة . . كما يدخل الربان الماهر بالسفينة

ميناء الأمان ، بعد أن عبثت بها تيارات المحيط . . وعاد إلى المحامى اطمئنانه عند ما بدأت القضية تسير فى مجراها الطبيعى . . فترافع ودافع كما اشتهى ، ونسى لحسن الحظ مطلع المناقشة الذى حيره . . ولم يسائل بعدئذ نفسه فيه . . . ولم يكشف له سره بالطبع حتى اليوم . . .

* * *

هكذا عشنا فترة من الزمن . .

نكد ونعبث ، ونعمل ونلعب ، ونخلط الجد بالهزل ، ونمزج الوقار بالضحك . . ونغلف تبعاتنا بثوب من المرح ، ويصبغ لنا الشباب كل شىء بلون الخمر . . وكانت لكلمة « الغد » فى صدورنا خفقة ، كخفقة الورد وهو يتلقى قطرة الندى فى كل فجر . . وكان لكل شىء فى أفواهنا طعم . . . ولو كنا نعرف أن لذة « الطاجن » القذر قد ذهبت معه ، ولن نجدها بعد ذلك فى أفخم الموائد ولا فى أفخر الولائم . . وأن حلاوة المناقشة فى عشرة قروش لن تشترى فيما بعد بآلاف الجنيهات . . لكنا قدرنا قيمة ما نملك ، وعلمنا أن السعادة كانت هابطة فى مسكننا دون أن ندرك . .

هكذا عشنا تلك الفترة إلى أن فرقت بيننا الأيام وبعثرتنا الأقدار . . فانتقل قاضى إيتياى إلى جوار ربه ووصل قاضى دمنهور إلى أرقى المناصب القضائية . . وانتحيت أنا جانباً أدون من حين إلى حين صفحة من هذه الذكريات . .

فهرس



مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات

دار المعارف

تقدم إلى الآباء والأمهات مجموعة :

فى غياب الطبيب

باشراف الدكتور سليمان عزمى

سلسلة من الكتب الصحية الطبية
يحتاج إليها كل إنسان ولا يستغنى عنها كل منزل .

صدر منها

الكتاب الأول

صحة الطفل

بقلم الدكتور حبيب صادر